ثانيًا: مظاهر التسلط

١- العدل والظلم.

٢- الزعيم.

٣- العيب فى الذات الملكية.

٤- ألقاب التعظيم فى الموروث الثقافى والحياة اليومية.

٥- محمد الرسول بلا ألقاب.

٦- المرأة بين الغياب والحضور.

٧- الغطاء.

٨- ثقافة الأمراء.

٩- من غرناطة إلى الرياض.

١٠- تصدير الخوف.

١١- مات الفرد، عاش الشعب!

١٢- الأموات يحكمون.

١٣- تداول السلطة والمنافسة غير المتكافئة.

١٤- وداعا.. أبا عمار.

obeikan.com

obeikan.com

١- العدل والظلم(*)

إن أهم علاقة بين الحاكم والمحكوم ليس النظام السياسى ملكية أو جمهورية، ليبرالية أو اشتراكية، قطرية أو قومية، بل هو تحقيق العدل فى المجتمع، وتجنب الظلم، ليس فقط فى النظام السياسى، أن يحكم حزب واحد دون غيره أو طائفة أو عشيرة أو قبيلة دون غيرها، بل أيضًا فى الحياة العامة ابتداء من الحياة اليومية: العدل فى الخدمات، وتلبية الحاجات، والتعامل مع جهاز الدولة، ونظم التعليم، ونظام الأجور، والعدل الاجتماعى أى توزيع الدخل القومى على المواطنين طبقًا لقيمة العمل وحده. فالعمل مصدر القيمة، والعدل السياسى فى تداول السلطة، والعدل بين الحاكم والمحكوم فى الحقوق والواجبات، وعدم إيقاف حركة المرور فى العاصمة وتعطيل مصالح الناس؛ لأن الرئيس يمر أو حرمه أو أحد أبنائه أو مدير الأمن العام أو الوزير، والعدل فى العلاقات الدولية ضد المعيار المزدوج وحكم القوى على الضعيف.

وطالما دافع الفكر الإنسانى عن قيمة العدل ضد الظلم فى كل الثقافات والحضارات والأديان لدى كل الشعوب. فقد جعل أفلاطون العدالة فى «الجمهورية» حسن التوازن بين قوى النفس الشهوية والغضبية والعاقلة. وجعلها رولز أساس النظام الاجتماعى فى الليبرالية الجديدة فى «نظرية العدل».

وقد سُمّى المعتزلة «أهل التوحيد والعدل». ويعنى العدل أن الله لا يظلم الناس. ويتجلى فى حرية الإرادة واستقلال العقل حتى يصبح الإنسان مسئولاً محاسبًا. وهو ما أقره ليبنتز أيضا فى نظريته فى «العدل الإلهى» تحت تأثير المعتزلة. كما أقر الفقهاء أن حكم الكافر العادل أفضل عند الله من المسلم الظالم. فالعدل أساس الملك، وليس الإيمان. والإيمان الذى لا يتجلى فى العدل يكون ظلمًا. والكفر الذى يتجلى فى العدل

(*) جريدة الاتحاد: ٢٦ يوليو ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ١ يوليو ٢٠٠٣م.

يكون إيمانًا. وفى الحركة الإصلاحية عند الأفغانى ظهر مفهوم «المستبد العادل» كأحد طرق الإصلاح أى الجمع بين القوة والعدل بعد أن عرضها الفقه القديم على التبادل كأول صفة فى الحاكم، القوة ويستشير القاضى العادل أو العدل ويعين قائد الجيش القوى.

وقد تكرر اللفظ فى القرآن (٢٨ مرة) بتسعة معان:

١- العدل مع النفس وعدم ظلمها. ويكون العدل هنا ضد الهوى: ﴿**فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا**﴾ [النساء: ١٣٥]، وضد المصلحة والقرابة: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا**﴾ [المائدة: ٨]، ويكون ذلك فى القول ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ**﴾ [الأنعام: ١٥٢].

٢- العدل من التقوى: ﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٨]، والتقوى من الإيمان، ومن العدل الكفارة عن الذنب بالصوم: ﴿**أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ**﴾ [المائدة: ٩٥]، والله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى**﴾ [النحل: ٩٠].

٣- والكفر ضد العدل بمعنى عدم الاستقامة. وهو المعنى الاشتقاقى للفظ. «عَدَلَ» أى حاد عن الطريق. فهو من الألفاظ التى تدل على معنيين متضادين، الاستقامة أو الحَيْد. الحَيْد فى: ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١]، ﴿**وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ [النمل: ٦٠]. والاستقامة فى: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٩]، ﴿**وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨١]، ﴿**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [النحل: ٧٦].

٤- والعدل فى الإنسان فى الدنيا يقابله العدل فى الآخرة من الله. وطلب العدل فى الآخرة للظالم فى الدنيا لا يُستجاب؛ لأن الدنيا دار امتحان والآخرة دار جزاء: ﴿**وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا**﴾ [الأنعام: ٧٠]، ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ [البقرة: ١٢٣].

٥- والعدل بين الزوجين. ويستحيل العدل بين أكثر من زوج حتى لو حرص الرجل: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

٦- والعدل بين الناس يقوم به الأنبياء: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ﴾ [الشورى: ١٥]، والحكام: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، والعدل والقسط فى الحكم بين المتخاصمين: ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات: ٩].

٧- والعدل فى المعاملات يكون كتابة: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، من النفس أو من المولى ﴿أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٨- والشهادة تقوم على العدل وما يقوم به الشاهد العدل: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، شاهد أو شاهدان ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦]، ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

٩- العدل سنة الله فى خلقه. فقد خلق الله الإنسان بالعدل أى الاستقامة: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]. العدل أساس الكون، كلمات الله الصادقة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

والأهم من العدل هو الظلم أى عدم العدل. لذلك كثر ذكر الظلم فى القرآن (٢٨٩ مرة)، أى ما يزيد على ضعف العدل عشر مرات فى عدة محاور: ظلم النفس، وظلم الغير، وضرورة الثورة على الظلم، والنتائج المترتبة عليه. ومن نفس الاشتقاق ظلام. فالظلم ظلام، والعدل نور. وإذا كان العدل ضد الهوى فإن الظلم اتباع الهوى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]. فبالظلم تنهار السموات والأرض. وعدم الظلم يؤدى إلى الأمن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. كما أن الظلم يؤدى إلى الخوف الداخلى وغياب الطمأنينة. والظالم

لا يسعد بما يظلم به، ولا يهنأ بما يغتصب: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢]، والظلم عدوان: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ [النساء: ٣٠]، عدوان على النفس وعلى الآخرين، وخروج النفس من نطاق الاستقامة والاعتدال. والظلم زور: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤] لأنه تجافى الحق، والحَيْد عن العدل.

ومن الظلم كتم الشهادة، والعدل هو الإعلان عنها كما يقضى بذلك أول ركن من أركان الإسلام «أشهد:» ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ومن الظلم افتراء الكذب على الله أو التكذيب بآياته: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: ٢١]. ويضل الناس، ويصدهم عنها، ويعرض عن آياته: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]. ومن مظاهر الظلم منع ذكر اسم الله فى المساجد كما تفعل أنظمة القهر ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤].

والظلم ليس قدوة. والظالم لا يُتّبع: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]. والظالمون فى شقاق. لا يحكمهم عدل: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]. وليس لهم شفيع ولا نصير: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. لا يتبعهم أحد فى الدنيا أو الآخرة.

والظلم فى الدنيا هو سبب إنزال الشريعة، وسن القوانين لإقرار العدل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠]. لذلك كان الحكم بغير ما أنزل الله ظلمًا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

ويكون ظلم النفس. كل فعل سلبى للإنسان هو ظلم لنفسه قبل أن يكون ظلمًا للغير. وهو أكثر المحاور استعمالاً: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١]. والله لا يظلم بل الإنسان هو الذى يظلم نفسه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]. الله لا يظلم وليس ظلامًا: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]. الإنسان هو الظلوم ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ويكون ظلم النفس بتعدى الحدود: ﴿ **وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ** ﴾ [**الطلاق**: ١]، وبعبادة غير الله مثل العجل: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ** ﴾ [البقرة: ٥٤]، وبتبديل كلام الله: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾ [البقرة: ٥٩]، والكفر بآياته ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٠٣] وبالإلحاد فى أسمائه: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ** ﴾ [الحج: ٢٥]، والشرك بالله: ﴿ **يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان: ١٣].

ويكون ظلم الغير. وظلم الغير هو الحوب والطمع والرغبة فى الاستحواذ على كل شىء: ﴿ **قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ** ﴾ [ص: ٢٤]. ويكون ظلم الغير فى استغلال صاحب رأس المال للعامل والمحتاج: ﴿ **وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. الظلم ظلم للناس ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ** ﴾ [الشورى: ٤٢]، وأكل أموال اليتامى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا** ﴾ [النساء: ١٠].

وقد يكون الظلم فى القرية كلها أى النظام السياسى: ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا** ﴾ [النساء: ٧٥]. ولا تبقى لأنها تدمر نفسها بنفسها ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ** ﴾ [هود: ١٠٢]. والشعوب دورات طبقًا لقانون الظلم والعدل، العدل لإقامة النظم، والظلم لهدمها: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١١]. فالنظام السياسى القائم على الظلم ينهار ﴿ **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ** ﴾ [الحج: ٤٥]، ﴿ **إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٣١].

والثورة على الظلم واجبة بالقول والفعل، باللسان وباليد: ﴿ **لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ** ﴾ [النساء: ١٤٨]، وأذن للذين ظلموا بالقتال: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، والنصر لهم: ﴿ **وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. والمظلوم الذى هاجر من الوطن سيعود فاتحًا منتصرًا: ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ**

مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ [النحل: ٤١]، ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: ٤١].

والظلم يمحى أثره فى حالة التوبة والندم: ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل: ١١]. والاعتراف بالظلم طريق المغفر: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص: ١٦]، ﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٣٩]. وتأتى التوبة من النفس بالتغير بالفعل وليس بالشفاعة حتى ولو من الرسول: ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [هود: ٣٧]. والمغفرة ضرورية: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦]، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [النحل: ٦١].

والنتيجة الطبيعية للظلم هو العذاب: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ [الكهف: ٨٧]. ويكون العذاب بقطع دابر القوم الظالمين أى هلاكهم فى التاريخ أو بالفتنة: ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١]، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]. أما العمل الصالح فلا يؤدى إلا إلى النتيجة الصالحة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢].

ويتم الحساب طبقا للعدل وما سماه المعتزلة الاستحقاق: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [يس: ٥٤]، ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وتود النفس أن تفتدى بكل ما فى الأرض مما ظلمت: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ [يونس: ٥٤] ولكن فات الأوان. فالدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

فإذا كان العدل أساس الملك فإن الظلم سبب انهيار الملك. وعلى الحاكم أن يختار أى الطريقين مع المحكوم: طريق العدل فيقوم الملك، أو طريق الظلم فينهار الملك.

* * *

٢- الزعيـــــم (*)

فى الثقافة العربية الإسلامية الموروثة يقبع «الزعيم». وهو مفهوم ترسب فى وعينا التاريخى من الأنبياء بوصفهم قادة للأمم ومخلصين للشعوب: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، أولو العزم. نوح ينقذ قومه فى سفينة. وإبراهيم يقود أهله إلى دار الإيمان، وموسى يقف فى مواجهة فرعون، وعيسى فى مواجهة اليهود، ومحمد ضد أشراف قريش وساداتها.

ثم تحولت الخلافة بعد النبوة إلى ملك عضود، يتوارثه الأبناء عن الآباء. وتتم البيعة لمعاوية بالعصا أو الجزرة. ثم يتأله الزعيم، ويصبح ظل الله فى الأرض وليس خليفة للمسلمين أتى ببيعة، فالإمامة عقد وبيعة واختيار. ثم تحاول المعارضة زحزحة الزعيم، والخروج على الحاكم الظالم، والعودة إلى الشرعية، شرعية الشورى، والاختيار الحر من أهل الحل والعقد. ولا يفل الحديد إلا الحديد. فيظهر الإمام المعصوم ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا. وصفاته لا تقل ألوهية عن الحاكم الظالم، إمام بإمام، وزعيم بزعيم.

ويتجلى الزعيم أيضًا فى السيرة الشعبية، أبو زيد الهلالى، والزناتى خليفة، وسيف ابن ذى يزن، ويقتل الزعيم الزعيم أمام تهليل الحاضرين وفى خيال السامعين. وفى الأدب الشعبى يظهر ابن البلد أو الفتوة الذى يجند الناس لمحاربة الظلم، ويحقق العدل بين الناس، وكما صور نجيب محفوظ فى «الحرافيش» وفى «أولاد حارتنا»، جبل ورفاعة وقاسم فى الماضى وعرفة فى المستقبل، وكما ظهر فى مسرحية «الزعيم» ورواية «سقوط الإمام». الكل ينتظر الزعيم كلما اشتد الضنك، وعظم البلاء، وعم الإحباط، وساد العجز، ﴿**ويقولون متىٰ هو قل عسىٰ أن يكون قريبا**﴾

[الإسراء: ٥١].

(*) جريدة الزمان: ٧ يناير ٢٠٠٤.

والزعيم فى الداخل وليس فى الخارج، يتسلط على قومه سواء كان فى الحكم أو فى المعارضة. الزعيم فى الحكم يزج بالمعارضين فى السجون أو يصفيهم جسديّا. وإذا ثارت جماعات ضده قضى عليها. ووضعها فى مقابر جماعية. واستعمل كل وسائل الفتك والهلاك، القذائف والحرائق. وهرب الباقى إلى الخارج. وكوّنوا بؤرًا للمعارضة فى عواصم البلدان الأخرى. ولا ضير فى التعاون مع أعداء الوطن فى الخارج مادام لهم عدو مشترك فى الداخل. ولا ضير أن تأتى المعارضة فى الخارج على أسنة الرماح وفوهات المدافع وأزيز الطائرات كى يكونوا حكامًا بديلاً عن الزعيم. بل إنه يطيع أوامر الخارج، مرة بالعدوان على جاره الإسلامى فى الشرق، ومرة أخرى على جاره العربى فى الجنوب، مدمرًا قواته مرتين، والعدو فى الغرب، يحتل فلسطين أكثر من خمسين عامًا.

ولما بدأ الزعيم يشق عصا الطاعة، ويقوم بلعبته الخاصة، ولحسابه الخاص صدر الحكم بإعدامه، بالحصار على شعبه أكثر من عشر سنوات ثم بالعدوان عليه مرتين تحت عدة ذرائع، أسلحة الدمار الشامل، الإرهاب، التسلط والدكتاتورية. وقررت التخلص منه بالعدوان العسكرى حتى ولو كان خارج إطار الأمم المتحدة. وتم لقوات التحالف ما أرادت. وتم القبض عليه وإذلاله وهى تعانى من اشتداد المقاومة الوطنية ضدها. وهذا جزاء من يشق عصا الطاعة، عصا معاوية دون جزرته، القوة المسلحة للقضاء عليه. والعرب يتفرجون. والبعض منهم يتحالفون. وفريق ثالث يرتعش خشية أن تدور عليه الدائرة. فالتسلط تهمة الجميع، والتلويح بالعصا فى وجه الكل.

وترتعد فرائص باقى الزعماء المحاصرين بين مطرقة الخارج وسندان الداخل. فيهب زعيم آخر كان يومًا ما من زعماء الرفض، والمطالبة بالحد الأعلى فى القضايا الوطنية. وينتقل من القومية العربية إلى الاتحاد الإفريقى. فلم يعد يطيق خذلان العرب، ولا عجزهم عن الوقوف أمام الولايات المتحدة الأمريكية لفك الحصار عنه. يخشى من النموذج الأول فيسير وفقًا للنموذج الثانى. يترك نموذج الكراهية ويفضل نموذج الطوع طبقًا للآية الكريمة: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣]. وأعلن بلا مقابل وبلا سابق إعلان للجماهير العربية التى طالما وجّه الخطاب إليها عن تدمير أسلحة الدمار الشامل التى طالما أنكر وجودها. بل ويطالب باقى الأقطار

الشقيقة وبخاصة سوريا، والجولان مازالت محتلة، بالاقتداء بنفس الفعل، والسير فى نفس النموذج، التخلى طوعًا عن أسلحة الدمار الشامل دون التوجه إلى إسرائيل بنفس النصح. ويسرع قادة الغرب بالثناء عليه، بريطانيا وأمريكا، ويمدح هذه الخطوة الشجاعة من الزعيم الهمام الذى انقلب فى غمضة عين من العداء للغرب الاستعمارى إلى التسليم بمطالبه، والدفاع عن حقوقه، أملاً فى رفع الحصار عنه. ويدعو الشركات الأجنبية، البريطانية والأمريكية، للقدوم إلى البلاد من أجل الاستثمار. ويدخل بيت الطاعة بعد أن كان ناشزًا.

وحدث الشىء نفسه بالنسبة إلى إنكار تدمير الطائرتين الأمريكية والفرنسية ثم القبول بالمسئولية ودفع التعويضات بمليارات الدولارات، تحولاً مائة وثمانين درجة، من النقيض إلى النقيض، من الزعامة الجوفاء إلى الاستسلام الذليل، ومن البطولة العمياء إلى الإذعان الكامل. وأصبح أشهر نموذج لعدو الغرب صديقًا له دون التفوه ببنت شفة عن حقوق الإنسان فى الداخل وتصفية الخصوم السياسيين، وتكميم أفواه المعارضة، وانتهاك حقوق الإنسان، والفساد، والرشوة. فما يهم الغرب هو استسلام الحكام وليس مصالح الشعوب، إنهاء النتوءات البارزة والنغمة النشاز فى العلاقات الدولية التى تحددها القوى الكبرى وليس الحرية والديموقراطية للشعوب.

والآن على باقى الزعماء الخيار بين نموذج العصا ونموذج الجزرة، بين التسليم كرهًا بالحرب والعدوان أو الاستسلام طوعًا والانقلاب مائة وثمانين درجة، والتحول من النقيض إلى النقيض، من الأسد إلى النعامة، ومن الثقة الزائدة بالنفس إلى تصغير النفس وتقبيل الأيادى، ومن رفض النظام الدولى إلى التوسل للانخراط فيه. وهما خياران أحلاهما مر: القضاء على الزعيم بالعدوان الخارجى وإنهاء البطولة الجوفاء أمام الخارج أو القضاء على الزعيم بالإذعان والاستسلام فى الداخل بدعوى الواقعية السياسية، وتجنب العدوان، وحماية لمصالح الناس.

واحتار الزعماء أى النموذجين أفضل؟ الأول خسارة أمام الخارج، والثانى خسارة فى الداخل. والسير فى المحل دون حركة فى أى اتجاه، يمينًا أو يسارًا، مقتل تاريخى للنظام. فالمياه الآسنة ليست صالحة للحياة. والحقيقة أن مقياس اختيار الزعماء هو البقاء فى الحكم. كلما كان الخيار الأول هو خسارة الحكم فالاختيار الثانى هو

الأفضل، البقاء فى الحكم ولو ذليلاً مذعنًا مستسلمًا بعد أن كان مرفوع الرأس ينظر فى السماء، يستلهم العلم والمعرفة. ويتحول من «نبى الصحراء» إلى «رسول الأعداء»، يبلغ رسالاتهم للقبائل العربية.

يتحول الزعيم من طرف إلى طرف، من أمين القومية العربية إلى زعيم الاتحاد الإفريقى، ومن العدو الأول للاستعمار والمنظمات الدولية الخاضعة لنفوذ الدول الكبرى إلى المستسلم لقراراتها والداعى لها لزيارته والتفتيش على مصانعه ومستودعاته. كما تحول الزعيم الآخر فى النموذج الأول من مدافع عن القصور الرئاسية إلى أن أصبحت هذه القصور مراكز قيادة لقوات التحالف، ومن ساكن للقصور إلى ساكن للقبور. فلا فرق فى التطرف والانتقال من الحد الأقصى إلى الحد الأدنى بين الحكام والمحكومين، بين الزعيم ومعارضيه. فالتطرف سنة الجميع، من البطولة إلى الخيانة، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهداية.

وأين النموذج الثالث، نموذج التحالف مع الداخل ضد الخارج، النموذج الوطنى الذى يجسد مصالح الشعب ويدافع عن استقلاله وكرامته، نموذج ماليزيا الذى يتنازل رئيس وزرائها عن السلطة وهو فى قمتها، ويترك الحكم لجيل جديد وماليزيا فى أعلى معدل للتنمية بعد الصين؟ لم يمهد الحكم لابنه لخلافته كما هو الحال فى الجمهوريات الملكية، وفى الجيش الذى يتحول إلى قريش. وهو النموذج الإيرانى الذى أتى بثورة من الشعب وبانتخاب حر من الناس بالرغم من وجود توتر وصراع مكبوت بين المحافظين والإصلاحيين. لذلك كان هو الهدف القريب الثالث الذى عليه الاختيار بين العصا والجزرة، والإذعان لقوات التحالف كرهًا أو طوعًا. وإسرائيل مستعدة للمؤازرة فى حالة اختارت إيران الصمود ضد العدوان الخارجى وتدمير المفاعل النووى كما دمرت من قبل المفاعل العراقى.

لقد كانت حجة الزعيم بعد حركة الاستقلال الوطنى التنمية وبناء الدولة والتخطيط والتحول الاشتراكى والتصنيع. فلا وقت للجدل والصراع. زعيم واحد، وحزب واحد، ورأى واحد، وقرار واحد. والعمل خير من النظر، والفعل أفضل من المشاورة، والقرار أمضى من الحوار. فلما تم بناء الدولة وتحقق التخطيط، وسدت الحاجات الأساسية للشعوب رفع شعار كل شىء فى مواجهة العدو الخارجى

لاستكمال حركة التحرر الوطنى فى فلسطين. ولا شىء يعلو فوق صوت المعركة. وانتظر الناس المعركة فى قدس الأقداس. فقد ضاعت نصف فلسطين فى العصر الليبرالى فى عام ١٩٤٨م، وضاع النصف الآخر فى العهد الاشتراكى القومى فى عام ١٩٦٧م. ومازال الشعار مرفوعًا حتى ضاعت فلسطين وضاعت الحريات العامة. واستولت إسرائيل على كل فلسطين، واستولى العجز والإحباط والخوف والاستكانة والتخاذل على الشارع العربى حتى بعد سقوط عاصمتين عربيتين، بيروت فى ١٩٨٢م من إسرائيل، وبغداد فى عام ٢٠٠٣م، من قوات التحالف. والآن لم تعد هناك حجج وذرائع أخرى. فلا فلسطين تحررت، ولا المواطن العربى استرد حريته. وكانت الخسارة مزدوجة بعد أن توهم الناس أن النصر سيكون مضاعفًا على أرض الوطن وفى روح المواطن.

متى تتحول الزعامة من الفرد إلى الجماعة، ومن الزعيم إلى الشعب، ومن حكم الفرد المطلق إلى حكم الأمة، ومن البقاء فى السلطة مدى الحياة إلى تداول السلطة، ومن العقد الإلهى الأبدى بين الزعيم وبين الله أو التاريخ إلى العقد الاجتماعى المؤقت بينه وبين الشعب؟ متى يفك الزعيم العربى الحصار حول نفسه بين مطرقة الخارج وسندان الداخل حتى لا يضطر إلى الاختيار بين العصا والجزرة، بين الموت أسيرًا أو الموت ذليلاً؟

لقد انتهى النظام العربى وأكمل دورته على مدى نصف قرن فى النصف الثانى من القرن العشرين، منذ الثورات العربية التى قادها الضباط الأحرار وحركات الاستقلال الوطنى التى قادها الملوك. لقد أصبح النظام العربى حملاً ثقيلاً على الأمة العربية. فلا هو يحقق مطالبها فى الحرية والديموقراطية فى الداخل، ولا الكرامة والاستقلال تجاه الخارج، ولا هو قادر على الصمود أمام العصا أو الجزرة شاقًا لنفسه طريقًا ثالثًا، طريق التحالف مع الداخل ضد الخارج. فلا شىء بمعجز فى التاريخ. ولا شىء يمنع الشعوب من الحركة إذا توافرت الإرادة الجماعية، ولا القادة من المناورة إذا ما توافر لهم الخيال السياسى الضرورى الذى يجعلهم قادرين على رؤية مسار التاريخ على الأمد الطويل وليس فقط النظر إلى كراسى الحكم وتحت الأقدام.

إن تعامل النظم السياسية مع الخارج بمنطق العصا أو بمنطق الجزرة سيؤدى فى النهاية إلى زوالها، لغياب منطق ثالث هو زحف الشعوب على القصور كما حدث فى إندونيسيا وچورچيا. فلا طريق أمام الشعوب لاسترداد حريتها وكرامتها واستقلالها إلا بالتخلص ممن أذلوها وأذاقوها الهوان إلى درجة فقدان استقلالها واحتلال أراضيها. فى مواجهة منطق العصا والجزرة الذى تلوح بها القوى الكبرى للحكام كى تختار، هناك منطق قارب النجاة بالتحالف مع الشعوب ورد حرياتها المسلوبة منها إليها، منطق السُّلَّم الذى يهبط عليه الحكام من التطلع إلى أعلى إلى التطلع إلى أسفل. والأرض أكثر يقينًا وأمنًا ومن السماء.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

٣- العيب فى الذات الملكية (*)

«العيب فى الذات الملكية» جريمة تعاقب عليها كل نظم الحكم الملكية قديمًا وحديثًا وما شابهتها من نظم حكم مطلقة جمهورية أو سلطانية أو دولتية أو جماهيرية أو إماراتية. فالملك هو رأس السلطة. له المهابة والعظمة والجلالة. التجرؤ عليه بالنقد أو النيل منه بالعيب هو إضعاف له، وبالتالى إضعاف للقانون الذى يستمد شرعيته منه، وتقويض للدولة التى تتأسس عليه، وراثة من أب عن جد أو اختيارًا إلهيًا أو قبليًا أو عشائريا أو ثوريا. ولا فرق بين هذه النظم التى تستمد شرعيتها من البيعة الحرة للناس ومن الاختيار الطوعى للحاكم كما قال القدماء: «الإمامة عقد وبيعة واختيار». بنيتها واحدة، وأساسها واحد، القمة وليس القاعدة، والأعلى وليس الأدنى، وبتعبير أحد المسرحيين المعاصرين «الناس اللى فوق» وليس «الناس اللى تحت».

الذات الملكية «تابوه» مقدس لا يمكن الاقتراب منها أو حتى النظر إليها حتى لا تأخذ الناس الصاعقة. بل لا يمكن محادثتها شفاها بصوت مباشر مسموع. ولا يمكن التشبه بصفاتها. فهى وحدها «كامل الأوصاف»، الملهم الأول، والمعلم الأول، والمشرع الأول، بل والفنان الأول، أكمل البشر. وهو رئيس المدينة الفاضلة عند الفارابى، و«الإنسان الكامل» عند الصوفية، والإمام أو المهدى المنتظر عند الشيعة. وكان الملك السابق لمصر يحجز اللون الأحمر بجميع درجاته لعربات القصر دون الشعب.

وقد يمتد «التابوه» الملكى وتتسع مساحته حتى يشمل السياسة كلها. فهى من المحرمات فى النظم الشمولية. لا يجوز تعاطيها لأنها حكر على السلطان، وما على الجمهور إلا السمع والطاعة. وتتسع رقعة المحرمات، فتشمل الملك وزوجه وأولاده وأقاربه وأصدقاءه ووزراءه بل وخدمه وحشمه وإماءه وما ملكت أيمانه. «التابوه» هالة

(*) جريدة الاتحاد: ٢ أغسطس ٢٠٠٣، جريدة الزمان: ٢٦ يوليو ٢٠٠٣.

مقدسة لا يمكن لأحد أن يقترب منها وإلا احترق بنارها. لذلك قال محمد عبده بعد فشل الثورة العرابية: «لعن الله ساس ويسوس». ووجّه همه للعقل والنفس، للفكر والتربية.

والذات الملكية ليست شخص الملك وحده، بل هى دائرة المحرم أو المقدس التى يفترضها الذهن البشرى فى بدايات الوعى الإنسانى عندما يعجز عن الفهم فيقدس، ولا يقدر على التفكير فيعظّم. ويعجز عن الفعل فيؤله. ومن هذه الدائرة ينشأ الدين. وتأخذ صفات المؤلَّه نفس صفات الملك. لذلك طالما جمع الملك بين السلطتين الدينية والسياسية، ونشأ الحكم «الثيوقراطى» أيضًا من هذه الوحدة بين السلطتين فى كل الديانات. والخروج على أحدهما خروج على الآخر. وأساء الناس تفسير آية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ناسين المبدأ الثانى «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»، وأن أعظم شهادة قولة حق فى وجه إمام ظالم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصيحة فى الإسلام، والحسبة أى الرقابة على الحكم وهى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية.

يتحد «التابوهان» معًا، ويغذّى كّل منهما الآخر، التابوه السياسى والتابوه الدينى كما قال الفارابى من قبل: سواء قلت الله أو النبى أو الملك أو الإمام أو الفيلسوف فإننى أعنى الشىء نفسه، موحدًا بين السلطة الدينية والسلطة السياسية من ناحية والفكر من ناحية ثانية عادّا إياه سلطة وليس نقدًا للسلطة. فهناك حجة السلطة فى مقابل حجة العقل كما يعرف المناطقة، قدماء ومحدثين.

وكما يضفى النظام السياسى هالة التعظيم والتبجيل على الذات الملكية كذلك تضفى العواطف الدينية هالة من التقديس على الذات الإلهية، وإطلاق الخيال لتصوره، قياسًا للغائب على الشاهد كما قال القدماء. فى الشاهد صفات محدودة، وفى الغائب صفات محدودة. فالله والملك يشاركان فى الصفات نفسها، العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، ولكنها محدودة فى الإنسان مطلقة فى الله. صفات حقيقية فى الإنسان وصفات مجازية فى الله حرصًا على التنزيه، كما قال ابن الأيادى من اللغويين القدماء.

والسؤال هو: أى من «التابوهين» مصدر للآخر؟ أيهما ينشأ أولاً فى الذهن البشرى: «التابوه السياسى» أم «التابوه الدينى»؟ وإذا أراد أحد تغيير النظام الملكى إلى

نظام جمهورى فبأى «التابوهين» يبدأ: السياسى مباشرة أم الدينى على نحو غير مباشر؟ هل السياسة أصل الدين أم الدين أصل السياسة؟ أليست السياسة دينًا مقنعًا وهى الأيديولوچية عند العلمانيين، والدين سياسة كونية وشريعة إلهية عند السلفيين؟

وكما ينظر الإنسان إلى «الذات الملكية» خارج الفهم وداخل الطاعة وينظر إلى «الذات الإلهية» قياسًا للغائب على الشاهد وداخل الترغيب والترهيب كذلك ينظر إلى داخل نفسه وفى علاقته بالآخرين فى دائرة محرم ثالثة هو «الجنس». لذلك وضعت الدولة تشريعات لتنظيمه، وإضفاء الشرعية على بعض ممارساته مثل الزواج والطلاق واللاشرعية على بعض ممارسات أخرى مثل الشذوذ الجنسى والعلاقات الجنسية الحرة. وكلما زاد التحريم فى السياسة وفى الدين زاد التحريم أيضًا فى الجنس وفى الثقافة الشعبية. وكما لا يمكن مشافهة الملك أو النظر إلى الله كذلك لا يمكن الاقتراب من الجنس الآخر، لمسه، فالمصافحة حرام، أو النظر إليه لضرورة غض البصر أو رؤيته لضرورة الحجاب، بالرغم من محاولات الصوفية «كشف المحجوب».

وفى معظم أدبيات العالم ترتبط هذه التابوهات الثلاثة بعضها بالبعض الآخر. ففى الأدبيات الهندية عن الجنس لا يمكن الاقتراب من زوجة الملك. وهناك طائفة تعبد الفرج رمزًا للوحدة بين الدين والجنس. وفى ثقافات أخرى لا يمكن الزواج من نساء النبى المتوفى أو الزوج المتوفى احترامًا لذكرى النبى والزوج. وفى «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ من ذا الذى يستطيع الاقتراب من الجبلاوى إلا من خلال ناظر الوقف؟ وماذا يستطيع «الفتوة» أن يفعل، جبل أو رفاعة أو قاسم إلا صحوة تعقبها غفوة، ونهضة يتلوها سقوط؟

والسؤال هو: هل الدعوة إلى نظرة تحررية لعلاقات المرأة بالرجل ممكنة طالما وجد التابوهان الآخران، الدين والسياسة؟ ومن أين يبدأ التحرر، من إعادة تصور الذات الإلهية وجعلها أكثر قربًا للعباد، وإعادة بناء النظام السياسى على أساس من الدستور وسيادة القانون والرقابة الإعلامية على أجهزة الحكم أو من التحرر من الخوف النفسى والرهبة تجاه الآخر فى العلاقات بين الرجل والمرأة؟ هل لابد من قتل الجبلاوى وإنهاء عصر الفتوات والبداية بالعلم كما أراد حنش فى «أولاد حارتنا».

إن وجود «التابوه» فى الثقافات الشعبية يؤصل وجود اللاعقلانية فيها. فهو سر لا

يمكن فهمه أو الاقتراب منه بالتحليل والنقد. والإنسان فى حاجة إلى دائرة المقدس ليشبع فيها رغبته فى المجهول. هو دائرة «اللامعقول» التى منها خرج الصوفية والإشراقية والباطنية والتأويلية. هو أقرب إلى الوجدان منه إلى العقل. يدفع الإنسان نحو المعرفة دون أن ينالها إلا بطرق لاعقلية كما هو الحال فى الغنوصية.

يبعث فى الإنسان عاطفتين متناقضتين، الخوف والرجاء، والهيبة والأنس، والفقد والوجد، إلى آخر ما وصف الصوفية من مقامات وأحوال. منه يأتى العلم اللدنى كما يقول الغزالى. وعلاقة الإنسان به علاقة اطمئنان ورضا وتشفع وتزلف واقتراب أو خوف وقلق وارتعاش كما يقول «كيركجارد». يدفع الإنسان إلى الخوف منه والرجاء فيه. وينال جزاءه قدر الابتعاد عنه أو القرب منه. الشعائر والطقوس ومظاهر العبادة طريق إليه. هو مصدر الترغيب والترهيب، والنعيم والعذاب، والوعد والوعيد، والجنة والنار.

ولا يملك الإنسان تجاهه إلا الطاعة والرضا دون عصيان أو غضب. كل شىء يقع فى الدنيا فبإرادته. لذلك لا يجوز الاعتراض عليه بل وقبول كل شىء منه على أنه امتحان واختبار وبلاء. الفرج بعد الشدة، والفوز بعد الصبر. الطاعة هو السلوك الأمثل، طاعة الله، وطاعة الحاكم، وطاعة الرئيس وطاعة الإمام، وطاعة الوالدين. الرفض والاحتجاج والتمرد من أفعال الشيطان. لذلك روى إقبال فى «جواب شكوى» حواراً متخيلاً: «سألنى الله يومًا هل يعجبك العالم؟ قلت لا. قال: إذن غيّره». لم يغضب الله من الاحتجاج والاعتراض والرفض. بل قبل اعتراض إبليس على السجود لآدم وحاوره، واستجاب لمطلبه ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤، ١٥]. طلب إبليس الزمان وأعطاه الله له كى يبدأ التحدى. فالإنسان مركز الكون، مكرّم فى الأرض ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وعليه أن يثبت ذلك بالفعل دفاعًا عن ملكوته وكرامته بالسعى فى الأرض والكدح فيها.

و لا يقضى هذا «التابوه» فقط على العقل والعقلانية بل هو مصدر التخلف والعشوائية والاضطراب فى الحياة اليومية. فلم تعد الحياة يحكمها قانون لأنها سر لا يمكن فهمه ولا السيطرة عليه إلا بالسحر والطلسمات وتقديم القرابين وفروض الولاء

والطاعة. النظام السياسى دعامته إرادة الملك إن شاء حربًا فحرب، وإن شاء سلمًا فسلم. إن أراد اشتراكية كانت، وإن غيرها إلى رأسمالية تكون. إن رغب عروبة فالناس عرب، وإن كفر بها وجعلها قطرية فالناس أقطار.

وتصور الذات الإلهية كذلك، ﴿إذا أرادَ شَيْئًا أن يقُولَ لهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وتلك هى المعركة الرئيسية بين الغزالى فى «تهافت الفلاسفة» وابن رشد فى «تهافت التهافت». يريد الغزالى أن يعطى الأولوية للإرادة على الحكمة، لا فرق بين إرادة الله وإرادة السلطان. ويريد ابن رشد العكس، أن يعطى الأولوية للحكمة على الإرادة حتى يستطيع الإنسان أن يعيش فى العالم ويثق فى قوانينه. يكتشفها بعقله ويسيطر عليها بإرادته، كما يفعل الغرب الحديث.

لذلك شخصنا المؤسسات، وسُميت الدول بأسماء مؤسسيها، والإدارات برؤسائها. وشخصنا العالم أيضًا فى خالقه. ورددنا الفعل إلى الفاعل، والنصر إلى المنتصر، ودورات التاريخ إلى أسماء ملوكها وأسرها الحاكمة. كل شىء يحدث فى العالم بتقدير منه، وبتوجيهات السيد الرئيس. ولا شىء يحدث بفعل العقل أو طبقًا للواقع أو قانون التاريخ.

فهل نستطيع أن نلغى قوانين «العيب فى الذات الملكية» حتى يتحرر العقل وتنشط الإرادة؟ هل تستطيع الذات العربية التحرر من الرهبة والخوف إلى الثقة بالنفس، وأن يتغير سلوكها من الطاعة العمياء إلى المراجعة والنقد والحساب؟ هل يستطيع الوجدان العربى أن يقلب الهرم حتى تصبح قمته فى الأرض وقاعدته فى السماء؟

* * *

٤- ألقاب التعظيم فى الموروث الثقافى والحياة اليومية (*)

انشغل العرب فى حياتهم المعاصرة بالاستقلال وهو أمر طبيعى حتى يتحرر العرب من الاستعمار إثر انهيار الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى واستبدال سيد بسيد، السيد الغربى بالسيد التركى. ونجحوا فى ذلك إلى حد كبير. فاستقلت الأمصار، ونشأت الدولة الحديثة. وبلغت ذروة حركة التحرر الوطنى فى الخمسينيات والستينيات. امتدت بعدها إلى القارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وأصبحت الناصرية أكبر تجسيد لها. ومازال العرب يحنون إليها كلما اشتدت الأزمات، وعظم الكرب، وعاد الاستعمار المباشر إليها بالاحتلال الصهيونى المباشر لفلسطين، وبالغزو العسكرى الأمريكى المباشر للعراق.

كما انشغل العرب ببناء الدولة الحديثة بعد الاستقلال، التخطيط والتنمية والتصنيع والتعليم وبناء المؤسسات الدستورية فى حضور زعامات تاريخية مما أعطى الأولوية للزعيم على المؤسسة. وحقق العرب أكبر تغيير فى بنية المجتمعات العربية، الإصلاح الزراعى والقضاء على الإقطاع ومجتمع النصف فى المائة الذى كان يسيطر على أكثر من ٩٥ ٪ من ثروات البلاد. وربما مازال الأمر كذلك فى الدول الزراعية. فلما أتت هزيمة يونيو - حزيران عام ١٩٦٧م انهار حلم الدولة الحديثة فى الحرية والاشتراكية والوحدة. وبدأ التحول عن مكتسباتها الوطنية والقومية حتى تحولت إلى دول تقوم نظمها على القهر والاستبداد فى الداخل، والتبعية للقوى الكبرى فى الخارج، والقطرية بعد أن تم غزو العرب بعضهما لبعض، وطعن الثورة الإسلامية فى إيران من الخلف، وترك الانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية، انتفاضة الحجارة وانتفاضة السلاح، انتفاضة الأقصى وانتفاضة الاستقلال بمفردها دون ظهير، منذ ثلاث سنوات.

(*) جريدة الاتحاد: ٣٠ أغسطس ٢٠٠٣، جريدة الزمان: ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣.

ومع ذلك لم يلتفت العرب إلى إعادة بناء موروثهم الثقافى الذى استمر محافظًا منذ ألف عام، منذ أن قضى الغزالى على العلوم العقلية فى القرن الخامس الهجرى، وكتب للسلطان أيديولوچية السلطة فى «الاقتصاد فى الاعتقاد». وقد أعانه السلطان، نظام الملك، على ذلك بإنشاء المدرسة النظامية له. فلا فرق بين صفات الله وصفات السلطان. كلاهما عالم قادر حى، سميع بصير متكلم مريد. الله بذاته، والسلطان من خلال أجهزة أمنه ومخابراته. وكتب للناس «إحياء علوم الدين» من أجل ترسيخ أيديولوچية الطاعة والتى تقوم على الصبر والتوكل والرضا والقناعة والخوف والخشية. وهى قيم سلبية تجعل الناس أقرب إلى الاستسلام منهم إلى الثورة والغضب والرفض والتمرد والاعتراض.

حاول العرب ذلك مرتين. الأولى فى فجر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر بتياراتها الثلاثة، الليبرالى عند الطهطاوى وخير الدين التونسى، والإصلاحى عند الأفغانى ومحمد عبده، والعلمى العلمانى عند شبلى شميل وفرح أنطون. كانت محاولات للنخبة من أجل إثارة الأذهان والعقول، وإحداث اليقظة الضرورية للدخول فى عصر الحداثة. وكان الانبهار بالنموذج الغربى عامًا وسائدًا، التنوير عند روسو وڤولتير ومونتسكيو عند الطهطاوى، ولوثر فى الغرب والميكادو فى الشرق عند الأفغانى، وداروِن وسبنسر عند شبلى شميل وفرح أنطون. لم يستطع الوافد الغربى أن يحل محل الموروث القديم الذى ظل محافظا فى مجمله بالرغم من محاولات الأفغانى إعادة تفسير القضاء والقدر بوصفه حرية داخلية وصياغة الإسلام بوصفه ثورة فى مواجهة الاستبداد فى الداخل والاستعمار فى الخارج، ومحاولة محمد عبده الانتقال من الأشعرية إلى الاعتزال، ومن النقل إلى العقل، ومن الكسب إلى الاختيار الحر. ثم أدت الكبوات المستمرة للنهضة العربية إلى ضياع هذا المكتسب النخبوى القائم على الوافد الغربى. وتحولت الليبرالية التى قامت على فلسفة التنوير تدريجيًا إلى تغريب صريح عند أحمد لطفى السيد وطه حسين. كما انقلب الإصلاح الدينى تدريجيًا إلى سلفية بعد فشل الثورة العرابية عند رشيد رضا والجماعات الإسلامية المعاصرة، وتحول العلم والعلمانية إلى خرافة وحاكمية، إعجاز علمى فى القرآن، وحاكمية الله دون حاكمية البشر.

لم يحاول المثقفون الوطنيون العرب تثوير الثقافة العربية، والبداية فى نهضة عربية

ثانية بالمفكرين الأحرار كما بدأت الثورات العربية بالضباط الأحرار. حاول بعض المثقفين العرب ذلك بعد هزيمة حزيران فيما يسمى بالمشروعات العربية المعاصرة فى مصر والمغرب والشام وبخاصة قبل أن يلحق الخليج، ولكنها أتت أيضًا نخبوية من الطبقة المتوسطة. لم تؤثر فى الناس. ولم تتحول إلى برامج ثقافية واجتماعية وسياسية شعبية لأنها جزء من المعارضة العربية التى تحاصر بعضها نظم الحكم أو تستأنس البعض الآخر.

بل واشتدت المحافظة بعد انهيار المشروعين الكبيرين للتحديث، المشروع الليبرالى فى النصف الأول من القرن العشرين بقيام الثورات العربية فى منتصفه، والمشروع القومى الاشتراكى الوحدوى فى النصف الثانى من القرن العشرين بهزيمة يونيو - حزيران عام ١٩٦٧م، ثم حرب الخليج الأولى فى عام ١٩٨٠م وحرب الخليج الثانية فى أغسطس عام ١٩٩٠م، ثم الغزو الأمريكى للعراق فى مارس عام ٢٠٠٣م. فصعب التعامل مع العصر نظرا لهذا الثقل الكبير للموروث الثقافى فى جانبه المحافظ على الوعى الثقافى العربى. وهو حاضر حضور البطالة والفساد والقهر والفقر إن لم يكن أكثر حضورا لأنه هو الذى يحدد تصورات العالم، ويضع معايير السلوك. مازال يؤثر فى الحاكم والمحكوم. يعتمد عليه الحاكم لإضفاء الشرعية على النظام إذا ما نقصته الشرعية المستمدة من الاختيار الحر للناس. فيملأ أجهزة الإعلام بالبرامج الدينية استجداء لعواطف الناس الدينية وحتى يبدو وكأنه سادس الخلفاء الراشدين. ويعتمد عليه المحكوم وبخاصة الجماعات الإسلامية المعارضة بوصفه سلاحًا لتقويض نظم الحكم. وترفع شعارات مثل «الحاكمية لله»، ضد حاكمية البشر، و«الإسلام هو الحل» ضد الأيديولوچيات العلمانية للتحديث، الليبرالية والقومية والماركسية، و«تطبيق الشريعة الإسلامية» ضد عذاب المواطنين فى مؤسسات الدولة وضد القوانين «الوضعية» أو «المدنية» السائدة. واشتدت مظاهر المحافظة فى الحياة اليومية فى عادات اللباس والطعام والعلاقات الاجتماعية. والسؤال الآن هو: هل يمكن البداية من جديد من أجل إرساء قواعد نهضة عربية ثانية وذلك بإعادة بناء الموروث الثقافى العربى القديم ونقله من المحافظة إلى التحرر، ومن التقليد إلى التجديد؟

يمكن ذلك. والمثل هو مدى انتشار ألقاب التعظيم فى موروثنا الثقافى القديم وفى

حياتنا المعاصرة. فقد ورثنا ألقابًا دينية تقوم على التعظيم والتفخيم والإجلال إلى حد التقديس والتأليه مثل: «شيخ الإسلام»، والإسلام كما نعلم ليس له شيخ ولا رجال دين. «حجة الإسلام»، والإسلام ليس له حجة واحدة بل تتعدد فيه المذاهب والفرق والطوائف. «فخر الإسلام»، وكل العلماء والمجاهدين بل وعامة المسلمين هم فخر الإسلام. «صدر الإسلام»، والإسلام ليس له صدر أو عجز. والشهيد هو صدر الإسلام الذى يتلقى الرصاص بصدره دفاعًا عن الأمة. «سيف الإسلام»، وللإسلام سيوف متعددة وليس سيفًا واحدًا فى أيدى المجاهدين.

وقد تأتى الألقاب مرتبطة بالدين مثل «فخر الدين» والدين ليس له فخر واحد. «نصير الدين» والدين ليس له نصير واحد. «ولى الدين» والدين ليس له ولى واحد. وقد يرتبط اللقب بالشريعة مثل «صدر الشريعة»، والشريعة وضعية لها مقاصد تقوم على المصالح العامة فى صدور عدة وليست فى صدر واحد. وتتشعب الألقاب، وتجمع بين لقبين مثل «الشيخ الرئيس» جامعًا بين السلطتين الدينية والسياسية. «أمير المؤمنين» جمعًا بين الإمارة السياسية والإيمان الدينى، «خليفة المسلمين» استئنافًا لخليفة رسول الله، والقائم على شئونهم فى دينهم ودنياهم. وقد يتحول اللقب إلى صورة فنية مثل «شمس الأئمة»، «سيف الله». وقد يكون حقيقة لا مجازًا مثل «قاضى القضاة»، «إمام الحرمين» للدلالة على السلطة العلمية أو «خادم الحرمين الشريفين» للدلالة على السلطة الدينية والسياسية. وتزدهر الألقاب أكثر عند الشيعة مثل «الإمام»، «الهادى»، «المهدى»، «روح الله»، «آية الله» إلى آخر ما هو معروف فى ألقاب الشيعة. ومعظمها دينية علمية مرجعية. فى حين أنها عند السنة معظمها دينية سياسية؛ لأنهم أهل العلم والسلطة.

وقد انعكس ذلك فى حياة العرب اليومية، الدينية والسياسية. فذاعت الألقاب، وانتشرت عبارات التفخيم والتعظيم حتى لا يكاد الإنسان يعرف الفرق بين «صاحب السعادة» و«صاحب النيافة» و«صاحب السيادة» و«صاحب المعالى» و«صاحب العظمة» و«صاحب الفخامة» و«صاحب الجلالة». وكلها مستعارة من صفات الله. فالسيادة والتعالى والجلالة والعظمة كلها لله. والسعادة للبشر أجمعين.

وأخذ القادة ألقابا مشابهة تتراوح بين الرئيس والزعيم والقائد والشيخ والملك

والأمير والفريق. وسمى أحد القادة نفسه بتسعة وتسعين اسمًا من بينها المجاهد والمناضل والغيور والقومى والعروبى والأبى والملهم، والبطل حتى ولو تكررت الأسماء والمعنى واحد. فكلما زادت الألقاب زادت الهيبة مثل «الركن المهيب». ومن الألقاب ما أتى من العصر التركى المملوكى مثل «الأغا» و«الباشا» و«البيك» و«الأفندى» و«السلطان» و«الوالى».

صحيح أن من القرارات الأولى للثورة العربية إلغاء الألقاب المدنية والإبقاء فقط على الألقاب العسكرية التركية أولا مثل «يوزباشى» و«باكباشى» ثم العربية ثانيًا، «الملازم» و«المقدم» و«النقيب» و«اللواء» و«المشير» و«الفريق». ومع ذلك ظلت الألقاب فى حياتنا اليومية «سعادة الباشا» و«سعادة البيك» و«عظمتك» و«سيادتك» و«حضرتك». مازالت عقلية «سى السيد» هى التى تحدد العلاقات بين الناس. وهو ما يجعل نظام الاستبداد الثقافى قائمًا لا يتزحزح، راسخًا لا يهتز. ثم نشكو بعد ذلك من أزمة الحرية والديموقراطية فى حياتنا السياسية. وأصلها فى ألقاب التعظيم والتفخيم والإجلال والتقديس والتأليه فى موروثنا الثقافى الممتد فى ثقافتنا الوطنية التى مازالت هى ركيزة ثقافتنا السياسية. فهل يمكن لحل الأزمة البداية بنزع جذور التسلط والقهر من وجداننا العربى المعاصر؟ إن للغة سحرها، وإن من البيان لسحرًا. ومازال العرب شعراء. والشاعر حر. والشعر يعلم العرب كيف يكونون أحرارًا. والانتفاضة فى اللغة، والألفاظ كالحجارة. إن العرب ليسوا ظاهرة صوتية ولم يضلوا الطريق كما قيل فى الاستشراق المعاصر. العرب لغة. والعروبة هى اللسان. واللغة منزل الوجود كما قيل فى الفلسفة المعاصرة. فمن تسكنه اللغة يسكن الوجود.

إن تفخيم الناس بعضهم البعض، رومانية وكسروية. حذر القرآن منه ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ٣١]. كما حذر الرسول من تعظيمه «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم». وإن البداية بالقضاء على جذور التسلط والقهر فى ثقافتنا المعاصرة إنما تبدأ بالقضاء على ألفاظ الاستعباد.

***

٥- محمد الرسول بلا ألقاب(*)

إن نزع جذور ألقاب التعظيم والتفخيم والإجلال من موروثنا الثقافى القديم ومن حياتنا الثقافية المعاصرة ليس صعبًا. إنما المهم هو البداية، والوعى بخطورتها على أزمة الحرية والديموقراطية فى حياتنا السياسية.

وإذا كان الرسول قدوة لنا فى حياتنا نتأسى بأقواله وأفعاله وإقراراته فقد خاطبه الله بلا ألقاب باستثناء «الرسول» أى أداة الرسالة ومبلغها من الله إلى الناس. ولم يجد القرآن حرجًا فى ندائه باسمه «محمد» خاليًا من الألقاب. وقد كان بعض الأعراب ينادونه «يا محمد». ويغضب عمر، ويخفف الرسول عنه غضبه. بل منهم من أمسك بتلابيبه وكاد عمر أن يقتله، فهدأ الرسول روعه. كان حوله الصحابة أى التلاميذ الذين يتعلمون فى مدرسة النبوة، وليس الحراس وعربات الأمن والشرطة المدججة بالسلاح وعربات الإسعاف المؤهلة فى حالة الاغتيال.

ذكر اسم «محمد» فى القرآن الكريم خمس مرات، كل مرة بدلالة خاصة. وذكر مرة واحدة باسم «أحمد» أيضًا بدلالة معينة:

١- محمد رسول مثل باقى الرسل: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ليس له ميزة خاصة. وهو خاتم الأنبياء والشفيع والشاهد على جميع الأمم وإمام الأنبياء فى الصلاة يوم الحشر: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١]. ما هو إلا رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ما هو إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد، شخصه فان: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾ [الزمر: ٣٠]. ورسالته باقية بعد وفاته ﴿**أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾ آل عمران: ١٤٤]. نظامه مستقل عنه، وليس مرتبطًا بشخصه ولا دولته مستعيرة

(*) جريدة الاتحاد: ٦ سبتمبر ٢٠٠٣.

اسمه، وليس رئيسًا مدى الحياة. هو واحد من المعلمين والقادة مثل غيره، لا فضل له زائد عليهم. لذلك تنحرف التواشيح والابتهالات الدينية ومدائح الرسول في الأشعار مثل البردة ونهجها وما قاله الصوفية عن «الحقيقة المحمدية» وعن الطريق، بالتركيز على الرسول وليس الرسالة في تعبيرات «أغثنا يا رسول الله»، «أعنا يا رسول الله» حتى أصبح الرسول كالمسيح متوسطًا بين العبد والرب مما دفع الوهابية عن حق للثورة على الوساطة بين الإنسان والله.

٢- الرسول ليس أبًا لأحد يورّثه ملكه وسلطانه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. بل هو حامل رسالة بل وآخر الرسالات، لا يخلفه أحد فيها، ولا يورثها لأحد من بعده. فالوراثة ليست مصدرًا للعلم ولا للملك، للنبوة ولا للسلطان. النبوة استحقاق، والإمامة بيعة. قد يخرج من عقب الظالم عادل، ومن رحم العادل ظالم. فالظلم والعدل حكم وتقدير وإدراك ثم اختيار حر ومسئولية.

لذلك كان أحد مظاهر أزمتنا السياسية هي تداول السلطة. فرئيس مدى الحياة. وآخر يرثها عن أبيه الذي ورثها عن أبيه حتى يصل الأمر إلى قريش. وضابط ينقلب على ضابط ويظل الأمر في الجيش، إرثًا لثورات الضباط الأحرار. ولا فرق بين قريش والجيش إلا من حيث الأصل الطبقي، طبقة الأشراف أو الطبقة المتوسطة. وفي كلتا الحالتين لا فرق بين ملكية وجمهورية، ملكية وراثية أو جمهورية تقصى منذ البداية من لا ينتسب إلى الجيش، قريش الجديدة. وصعب الحكم المدني، وانتخاب حر بين مرشحين مدنيين. فالقبيلة أو العائلة أو العشيرة هي صاحبة السلطة في جناح. والجيش أو الشرطة هي صاحبة السلطة في جناح آخر.

وقد تولد نظام ثالث جمهوري ملكي. يورث الضابط الحر ابنه خليفة له مع تغيير الدستور، وشروط الترشيح. فجوهر النظامين الملكي والجمهوري واحد يقوم على توريث السلطة وليس على تداولها. ولا تدور السلطة دائمًا في رجال البلاط بل قد تكون منتخبة من خارجه. لا تكون من نفس الشلة أو الرهط. وقد تحدث علماء السياسة عن نظام «الشلة» بوصفه نظامًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا سائدًا في الوطن العربي.

٣- والرسالة حق، والإيمان بها جزء من الواجبات العقلية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢]. ليس الإيمان بالزعيم أو القائد أو الرئيس أو الأمير بشخصه بل برسالته ودعوته ومبادئه. والإيمان بالشخص تأليه كاذب، وعبودية لغير الله.

هناك مبادئ عامة تمثل الحق فى كل مجتمع، وتعبر عن الإجماع الوطنى العام. فإذا كانت الأمة بطبيعتها وثقافتها وموقعها الجغرافى لا تنحاز إلى المعسكر الشرقى أو إلى المعسكر الغربى فإنها تقف على الحياد، وتكوّن كتلة عدم الانحياز فى القارات الثلاث، وتكون أكبر تجمع فى العالم فى عصر الاستقطاب. كما تحاول أن تكون مناهضة للعولمة، أحد أشكال الهيمنة الجديدة، دفاعًا عن استقلالها الوطنى، وحماية لصناعاتها الوطنية، وتأكيدًا لإرادتها الوطنية.

وإذا كانت مواردها الاقتصادية محدودة، ودخلها القومى محدد فإن النظام الاقتصادى الطبيعى يقوم على التخطيط وتنمية الموارد المادية والبشرية. لا تتفاوت فيه الطبقات تفاوتًا شديدًا، بل تذوب فيه الفوارق بين الطبقات. وتصبح وسائل الإنتاج العامة التى تمس مصالح الناس ملكية عامة منعًا للاستغلال. ويصبح التعليم بالمجان حتى تتكافأ فرص التعليم بين الغنى والفقير. وتكون مسئولية الدولة تشغيل الخريجين ودعم المواد الغذائية وتوفير الإسكان الشعبى الرخيص والتأمين الصحى والضمان الاجتماعى.

ومن ثم لا يتغير النظام السياسى الاجتماعى بتغير الحكام وأمزجتهم وأهوائهم وعلاقاتهم الدولية بالقوى الكبرى أو الداخلية برجال الأعمال وجماعات الضغط. هناك حق ثابت ودائم يمليه الموقع الجغرافى السياسى، ويحمى الأمة من الانقلابات السياسية وتغير السياسات الاقتصادية والاجتماعية طبقًا لأهواء الحكام.

٤- والرسول قدوة فى الحوار الوطنى فى الداخل، والجبهة الوطنية فى الخارج ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. فى الداخل حوار وتشاور وتبادل للرأى دون تكفير أو تخوين لأحد. وفى الخارج جبهة وطنية واحدة تجاه العدو. تعددية فى الداخل، وأحادية فى الخارج. التعددية فى الداخل

علامة من علامات الرحمة بين الناس، والاحترام المتبادل بين الحاكم والمحكوم. والجبهة الوطنية المتحدة فى الخارج قوة وصمود أمام العدو دون التشيع والتحزب والتفرق حتى لا يضرب العدو هذا الفريق بذاك مرة، وذاك الفريق بهذا مرة أخرى.

وهو درس من الرسول ضد حديث الفرقة الناجية الذى يشكك فى صحته ابن حزم وابن الوزير. وهو افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة، فرقة أهل السنة، فرقة الحكومة والدولة، فى مقابل فرق المعارضة الهالكة كلها. لقد عدَّ كل تيار سياسى نفسه، فى السلطة أو فى المعارضة، هو الفرقة الناجية. يحكم بمفرده إذا كان فى السلطة، ويعارض بمفرده إذا كان فى المعارضة. يتصور نفسه سلطة بديلة يحكم فى المستقبل بمفرده. فغاب الحوار الوطنى بين الحكومة والمعارضة، وعز بين فصائل المعارضة نفسها. الحكومة تَعُدَّ المعارضة خصما لها. وفصائل المعارضة يرى بعضها البعض الآخر منافسا له. أصبحت الخطابات السياسية متوازية أو متقاطعة، متجاورة أو متصارعة، دون أن ينشأ حوار بينها. وهذا هو معنى الرحمة بين الناس والفصائل والحاكم والمحكوم أى عدم الإقصاء والإبعاد، وتجاوز التخوين والتكفير، والبطولة والخيانة، والقصر والسجن، والشرعية واللاشرعية حتى يصبح الجميع مواطنين صالحين، متساوين فى الحقوق والواجبات باسم الرحمة المتبادلة أى الاعتراف المتبادل. «أنا على صواب وقد أكون على خطإ، وأنت على خطإ وقد تكون على صواب»، ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. دون تعيين أحد.

٥- واسمه أيضًا «أحمد» فى سلسلة من الأنبياء السابقين من آدم إليه: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. هكذا سماه السيد المسيح حمدًا لله فى الدنيا والآخرة. يعترف الرسول بجهاد الأنبياء السابقين. ولا يلغى دورهم أو ينتقص من جهادهم كما يفعل الساسة المعاصرون. فنظامهم يجُب ما قبله، نظامه تصحيح حالى لانحراف سابق. لذلك سميت بعض الأعياد القومية «ثورة التصحيح». التاريخ مسار متصل الحلقات. لا يلغى فيه اللاحق السابق، بل يتنبأ السابق باللاحق.

وقد يكون أحد أسباب العثرة فى الثورة العربية المعاصرة هى القطيعة مع الماضى على نموذج «الإسلام يجُب ما قبله»، وليس التواصل معه على نموذج «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام». أتت الثورة وتبنت تدريجيًا أيديولوچية قومية اشتراكية

وحدوية، وألغت ما قبلها من أيديولوچية ليبرالية. تقطع معها، بل وتتهمها بالانبهار بالغرب والإقطاع والنخبوية. وبعد هزيمة يونيو - حزيران واختفاء عبد الناصر من الساحة العربية انقلب الاختيار القومى الاشتراكى الوحدوى على عقبيه، مائة وثمانين درجة، من النقيض إلى النقيض، من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن التخطيط إلى الانفتاح، ومن سيطرة الدولة على أدوات الإنتاج إلى حرية الاستيراد والتصدير، ومن القومية إلى القطرية، ومن الحرية النسبية إلى القهر الكامل للشعوب.

لقد تطورت النبوة من آدم حتى محمد على نحو تراكمى. كل نبى يبنى على النبى السابق. ويتقدم الوعى بالتوازى مع تقدم الوحى. وقد عبر عن ذلك السيد المسيح بقوله «ما جئت لألغى الناموس بل جئت لأكمله». فى حين أن كل حاكم عربى يأتى ليلغى ما أسسه الحاكم السابق فى مسار متقطع ومتقلب أو مضاد. ألغت الثورة المصرية الأحزاب والتنظيمات السابقة عليها الوفدية والإسلامية والماركسية، وحكمت فى فراغ، ولم تستطع بناء حزب ثورى بديل وهى فى السلطة. فلما انقلبت على نفسها من داخلها لم تجد تنظيمًا شعبيًا يدافع عنها. وحدث الشىء نفسه فى تونس والجزائر والعراق وسوريا واليمن والسودان.

هذا هو الدرس المستفاد من محمد الرسول بلا ألقاب، مبادئ عامة حول استقلال المبدإ عن الشخص، وعدم توريث السلطة بل تداولها، وثبات الاختيارات السياسية العامة النابعة من الجغرافيا السياسية للوطن العربى والأمة الإسلامية، والحوار الوطنى فى الداخل والجبهة الوطنية المتحدة تجاه الخارج، وتواصل التجارب الوطنية دون أن تمحو لاحقتها سابقتها.

أما ألقاب التعظيم والتفخيم والإجلال والذى يصل إلى حد التقديس والتأليه للأشخاص فإنها تعارض صورة محمد الرسول فى القرآن الكريم وقوله: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم». وعلى الأمة العربية والإسلامية أى الصورتين تختار.

***

٦- المرأة بين الغياب والحضور(*)

فى المجتمعات التقليدية المحافظة تعيش المرأة بين الغياب والحضور، الغياب التام بالنهار، والحضور الكاسح بالليل. ففى الحياة العامة تغيب المرأة من الصباح إلى المساء. لا تسير بالطرقات، ولا تحضر الندوات، ولا تناقش فى الحوارات. صوتها وحضورها بل وجودها عورة. تمنى الموت لهن أفضل من تمنى الحياة. فهن عورة المجتمع، ونقطة ضعفه، ومصدر فتنة لرجاله ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]. منذ حواء التى فتنت آدم وأخرجته من الجنة حتى فتاة الليل وبائعة الهوى التى تقضى على عفة الرجل، وبراءة الذكورة، وعصمة الأنبياء.

وهى الثنائيات القديمة الموروثة بين الظاهر والباطن. فالرجل هو الظاهر المتجلى، والمرأة هى الباطن الخفى. وتتوالى باقى الثنائيات اللغوية المعرفية مثل: الحقيقة والمجاز، المحكم والمتشابه، المبين والمجمل، المطلق والمقيد، العام والخاص، الأمر والنهى ... إلخ.

فالرجل هو المحكم صاحب القول الفصل، والمرأة هى المتشابه الغامض المشترك اللعوب. والمحكم أقوى من المتشابه، كما أن الذكر أقوى من الفرج. الرجل هو المبين الواضح كالسيف، والمرأة هى المجمل الذى فى حاجة إلى بيان، الغامض الذى فى حاجة إلى وضوح. الرجل هو الحقيقة الذى لا يعنى خطابه إلا معنى واحداً، والمرأة مجاز تقول ما لا تعنى، وتعنى ما لا تقول. تتغطى، وتريد السفور. وتتحجب لمزيد من إظهار جمال العينين المكحلتين. وكم من حجاب مرصع باللآلئ يظهر الفتنة، ويكشف عن جمال الوجه، والرأس مغطى. الرجل هو العام الذى يتصدى لعظائم الأمور، والمرأة هى الخاص التى تعكف على بيتها، أولادها وزوجها كما هو الحال فى

(*) جريدة الاتحاد: ١٤ فبراير ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ١١ فبراير ٢٠٠٤.

المجتمعات التقليدية مثل اليابان، وفى الغرب فى المثالية الألمانية، فشته نموذجًا. الرجل هو الآمر الذى يقود ويسود، وكل شىء مباح له. والمرأة هى النهى فى دائرة الحرمان والمنع وكما هو الحال فى جرائم الشرف فى السلوك الشعبى. يطلق الرجل، مطلق السراح، والمرأة هى التى تدفع الثمن، وكما هو الحال فى الأمثال العامية «شرف البنت زى عود الكبريت». أما شرف الرجل فعلبة ثقاب لا تنتهى.

وشدة الحرمان بالنهار تؤدى إلى كثرة الإشباع بالليل. المرأة فى حد ذاتها بوصفها جسدًا وليست بوصفها إنسانًا تشارك فى الحياة العامة زميلة للرجل. بل تتعدد المرأة، فلا تكفى واحدة. فالمطلوب أى امرأة، بعد طول انتظار. فتتعدد الزوجات والإماء للتسرى. حتى إن الطهطاوى رائد التنوير فى «المرشد الأمين» عقد فصلا عن التسرى بالنساء. المرأة مجرد عضو جنسى، حاجة بيولوچية لقضاء الوطر. محجبة أو منقبة بالنهار، وسافرة عارية بالليل. بالنهار يُتّبع النهى والحظر والحرام، وبالليل يُتمتع بالحلال والمباح. والمرأة فى كلتا الحالتين بين الحظر والإباحة، بين الحرام والحلال، بين النهى والأمر. والشريعة جاهزة للتسويغ ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣].

وإن لم تكف الزوجات الشرعية فهناك إماء العصر، الشغالات الآسيويات خاصة غير المسلمات والفلبينيات. فهن ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، وكما صور أحد الروائيين المعاصرين فى رواية «بيع نفس بشرية». وماذا تفعل «شغالة» أمام سطوة الرجل؟ فهو الكفيل القادر على إرجاعها إلى وطنها، فتعجز عن إطعام الأهل والأولاد. ومن يشتكيه للقضاء وهو فى نفس الوقت القاضى والجلاد؟

وإن لم يستكف بالزوجات الشرعيات والتسرى بالإماء، فإنه يهبط مصرًا فإن له فيها ما سأل. ويتزوج المسنون بالشابات والفتيات الصغيرات. والتسويغ الشرعى قائم من تاريخ الأنبياء. والأب فى حاجة إلى بيع الابنة كى يقيم أود إخوتها. فزواج البنت سترها. والرجل لا عيب فيه إلا جيبه. وستعيش البنت واهمة فى بحبوحة من العيش وهى تُضرب كل يوم ثم ترجع حاملة طفلها، مطلقة حتى يسترها قريبها الفلاح بالزواج من بنت الأهل والقرية.

وقد لا يصبر الرجل خلال النهار حتى يأتى المساء فيعاشر الصبيان، «تصبيرة» فى الظهيرة حتى يأتى عشاء المساء، «سندويتش» منتصف النهار حتى يأتى دسم المساء. فتزدهر فى المجتمعات التقليدية ليس فقط الإباحة الجنسية عند الأمراء بل أيضًا الشذوذ الجنسى عند الفقراء.

وكما يفعل الرجل بالمرأة بسبب غيابها بالنهار وحضورها بالمساء كذلك تفعل المرأة بالرجل بسبب غيابه بالنهار وربما غيابه بالمساء. فتشبع حاجاتها هى الأخرى مع الرجل أى رجل، سائق أو خادم أو فى زيارة سياحية أو طبية خارج البلاد. لا يختلف وضع الأسرة فى المجتمعات التقليدية عن المجتمعات المتقدمة فى السلوك الانفرادى للرجل والمرأة. اختلاف فى الظاهر، واتفاق فى الباطن، والطرفان يلتقيان. وهذا هو التاريخ، من هارون الرشيد إلى السلطان عبد الحميد. وكما تنبأ الرسول: «الخلافة بعدى ثلاثون سنة، تتحول بعدها إلى ملك عضود».

المرأة هنا جزء من الثالوث المحرم: الدين والسياسة والجنس. هى مجرد رمز أو علامة لما يحدث فى المحرّمين الآخرين: الدين والسياسة. وما أسهل أن يتحول الخاص إلى العام، والجنس أى المرأة إلى الدين والسياسة. فالنموذج واحد. والبنية الذهنية والاجتماعية واحدة. المنع والقمع والإزاحة والقهر والتسلط من طرف، والكبت والحرمان الذى يؤتى إلى الإفلات من طرف آخر. وما يحدث فى الفضاء الخاص يحدث فى الفضاء العام. وما يقع فى الحياة الخاصة يقع أيضا فى الحياة العامة.

المرأة حجاب، وكذلك السياسة والدين: حجب وتستر وتخفٍّ. المؤسسة السياسية أيضا نخبة عرقية أو طائفية لا يخرج الملك منها، بالوراثة أو الانقلاب، من قريش أو الجيش. والحوار الوطنى فيها قاصر على نخبة محدودة من أهل الجاه. وكثير من النقاش حول الإصلاح يدور فى الخفاء.

والمؤسسة الدينية أيضًا تعمل فى الخفاء. تمتلك الحقيقة المطلقة مثل الذكر. ولا تعترف بالرأى الآخر ولا بالموقف المعارض مثل الأنثى. تحكم فى الخفاء مباشرة بالتعاون مع السلطة السياسية أو على نحو غير مباشر عن طريق الموروث الذى يغلب عليه طابع المحافظة وليس التجديد، وأحد التيارات النصية المحافظة فى الإصلاح الدينى الأخير ومن أوائل تياراته.

وكما يفعل الرجل فى العلن والمرأة فى السر، تفعل السلطة السياسية فى العلن وحركات المعارضة فى السر، تحت الأرض. وكما تمارس السلطة السياسية العنف معها فى العلن، تمارس المعارضة ضدها العنف فى السر بعمليات التفجير فى الداخل والخارج. فكثرة الكبت تولّد العنف. والقدر يغلى. ومن كثرة ضغط البخار يتفجر. ولا تنفع معه صمامات الأمان فى الدعوات ولو بالقول للإصلاح التدريجى كمنة من الأمراء أمام الضغوط الداخلية والخارجية وليس كحق مكتسب للشعوب.

والسلطة الدينية تعلن التشدد الاجتماعى فى الظاهر، وتستعمل الدين أداة للثبات الاجتماعى، وترسيخ قواعد النظام كى تنال الحظوة لدى السلطة السياسية، وتحصل على شىء من المكاسب والمغانم. فالخمس لله وللرسول. والحاكم يقوم بدور الإله، والفقهاء رسله.

هذه البنية الثنائية موروثة من الثقافة القديمة. وهى الأساس الشرعى الذى يمد نظام التسلط السياسى والدينى والجنسى بشرعيته. وهو نظام لا شأن له بالإسلام بل بالتقاليد الموروثة ونظم التسلط الحديثة. فالتسلط السياسى والاجتماعى يجد نسقه الفكرى فى التسلط الدينى. وهو نظام أيضا ضد طبائع الأشياء وطبيعة المجتمعات قديمًا وحديثًا، سرعان ما يزول، قصر العهد أم طال.

كانت المرأة البدوية قبل الإسلام تشارك فى الحياة العامة. تحب وتكره، تصادق وتعادى. وقصص الحب العذرى المتساوى بين الرجل والمرأة ما أكثرها مثل قيس وليلى، وعنترة وعبلة. وظلت تشارك بعد الإسلام فى السلم والحرب، فى العلم والجهاد. تعارض الخلفاء وتتوجه لهم بالرأى والنصح، وتشجع المعارضة السياسية ضد الظلم والطغيان، وتدفعهم إلى الشهادة عن رضا وطيب خاطر.

والمرأة نصف المجتمع على الأرض ولها نصف السماء. «النساء شقائق الرجال». خلقت والرجل من نفس واحدة ثم جُعلت زوجين. الرجل والمرأة رئتان. وليست المرأة رئة معطلة فيتنفس المجتمع برئة واحدة. وهما ساقان وليسا ساقًا واحدة، وإلا كان المجتمع أعرج. وهما عينان وليسا عينًا واحدة، وإلا كانت الحياة عوراء. وهما أذنان للاستماع إلى الرأى والرأى الآخر وإلى صوتين متناغمين وليس إلى صوت واحد، وإلا أصيبت الحياة بالرتابة والتكرار. وهما يدان تعملان، واليد الواحدة لا تصفق.

وقد انعكست هذه الأحادية فى المجتمع الذكورى التقليدى إلى أحادية فى الحياة الدينية والسياسية. ففى الدين الرأى الواحد هو الغالب، رأى المؤسسة الدينية، دار الإفتاء، وفقهاء السلطان، والفرقة الناجية فى مواجهة الفرق الهالكة الاثنتين والسبعين، والعقيدة الواحدة، الأشعرية، والمذهب الفقهى الواحد، الشافعية. وفى السلطة السياسية، الحكومة وحدها على حق، والمعارضة على باطل. الحزب الواحد وحده له كل المقاعد أو معظمها بأغلبية مطلقة، والمعارضة لها مقاعد معدودة على الأصابع بشق الأنفس أو بالاتفاق مع الحزب الحاكم، ذرّا للرماد فى العيون أمام الرأى العام العالمى أو تبادلاً للمكاسب، وقسمة للغنائم بين الحزب الحاكم والمعارضة «المستأنسة».

لقد كُتبت الروايات ونُظّمت الأشعار وصُورت الأفلام أن التحرر فى المجتمع لا يبدأ إلا من تحرر المرأة وخروجها من الخفاء إلى التجلى، ومن السر إلى العلن، ومن الستر إلى الكشف، ومن الباطن إلى الظاهر، ومن المجاز إلى الحقيقة، ومن المقيد إلى المطلق، ومن المتشابه إلى المحكم على ما هو معروف فى تحليل الألفاظ بين الأنوثة والذكورة. لقد صورت «الراهبة» لديدرو بعد أن تحولت إلى فيلم سينمائى كيف أن الحياة دبت فى الراهبة. فقلبت موت الراهبات باسم الدين إلى حياة ونغم وفرح ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [يونس: ٦٢]. كما صور فيلم «صوت الموسيقى» خروج الراهبة من حياة الدير لتحقيق رسالتها فى الحياة، الحب والزواج والأطفال، ومشاركة الرجل فى النضال السياسى ضد الطغيان عن طريق الفن والحياة. كما عبرت مسرحية «وطنى عكا» عن أن التحرر السياسى والنضال الوطنى ضد العدو المحتل إنما يبدأ بالتحرر العاطفى. والقادر على الحب قادر على النضال. ولا خيانة فى العشق سواء عشق المرأة أو عشق الوطن. بل إن الجهاد الأكبر ـ كما يروى أحيانا ـ هو جهاد النفس، يسبق الجهاد الأصغر وهو جهاد العدو.

طالما أن المرأة فى الخفاء، تتستر وتتخفى من الحياة العامة ينشأ لدينا صراع بين المرأة القديمة و«المرأة الجديدة»، بين الحجاب والسفور لدرجة الفتنة بيننا وبين أنفسنا، وبيننا وبين الآخرين كما حدث فى الفتاوى والفتاوى المضادة فى قضية الحجاب أخيراً. وسيدعم الغرب الاتجاهات والمنظمات ومراكز الأبحاث عن حقوق المرأة. وتُتهم ثقافتنا القديمة والموروثة والتى مازالت مستمرة بالمعاداة للمرأة، وأن لدينا مشكلة

«الجندر» مثل مشكلات الأقليات وحقوق الإنسان، والمجتمع المدنى، وحقوق الطفل، وحقوق البيئة. ويشق المجتمع والثقافة والحياة الخاصة والعامة إلى شقين: دعوة إلى الحداثة والتمرد على القديم، ودعوة إلى الأصالة والهوية والمحافظة ورفض الحديث. والمرأة حائرة بين الدعوتين. إن تبنت الأولى اتهمت بالسفور وعدم تطبيق الشريعة. وإن سارت فى الثانية اتهمت بالمحافظة والتقليد. أما وضع المرأة فى المجتمع وحصاره بين قانون الأحوال الشخصية القديم دون تطويره وحقوق المرأة كما تنادى به المواثيق الدولية، حق المساواة مع الرجل فى الشهادة والميراث والزواج والطلاق وتولى المناصب العامة بما فى ذلك رئاسة الدولة ودون نقد ما تبقى منه من عرى وإجهاض وشذوذ فلا يتغير. وتستصرخ المرأة فى هذا العصر نفسها وغيرها كيف تفك حصارها بالنقد المزدوج للقديم والجديد حتى يفرض الواقع نفسه على الفكر، والمصلحة العامة على النص.

***

obeikan.com

٧- الغطـــاء(*)

المجتمعات نوعان. نوع مغطى ونوع مكشوف. الأول يعيش تحت قبة سماوية أو مسرح البالون المسدود النوافذ اتقاء من الشمس الساطعة، وتيارات الهواء النقية، والنور الذى يكشف الممثلين على خشبة المسرح كى يفعل المخرج ما يشاء بإضاءاته، وتوجيه الحركات، ووضع الديكور للمناظر. والثانى المسرح المكشوف. ويعيش فى نور الشمس، ونسمات الهواء، دون ما حاجة إلى إضاءة إضافية أو حتى ممثلين. يشارك الجمهور الممثلين، لا فرق بين ممثل ومشاهد، بين خشبة مسرح وقاعة.

المجتمع المغطى إجاباته جاهزة، معروفة سلفًا. وهى حقائق مطلقة لا تتغير بتغير الزمان والمكان. إجابات واحدة، لا بديل عنها، ولا نقيض لها. تسبق فيها الأجوبة الأسئلة خشية أن تخرج الأسئلة عن التوجهات المقررة سلفًا والتى قد تسبب تصدعًا فى الغطاء أو تُوقع خروقًا فى قماشه السميك.

والمجتمع المكشوف يبدأ بالتساؤلات عما هو موجود، وعما يحتاج إليه، وفيما يتعرض له من مشكلات وأزمات. السؤال يسبق الجواب. وقد تتعدد الإجابات. فلا يوجد رأى واحد فى كيفية حل المشكلات، وإدارة الأزمات. وهو حل من طبيعة الذهن واستقراء الواقع للجمع بين القانون الثابت وتجربته على الجزئيات. لا يُسلّم بالإجابات الجاهزة القطعية التى تعرف الحقيقة مسبقًا حتى قبل وجود الواقع والسؤال. بل تنقدها، وتبين عيوبها وحدودها وقدمها، وعدم مواكبتها لتطور الزمان وتغير المكان. تشك فى الموروث، وتعمل النظر، وتجتهد فى الوصول إلى حل. تتعدد فيه الآراء وتتباين فيه المواقف. وأقدرها على تحقيق المصالح العامة هو الذى تتفق عليه الآراء بإجماع الأمة، تامًا كان أم ناقصًا.

(*) جريدة الاتحاد: ٢١ فبراير ٢٠٠٤.

وقد عرف الفلاسفة هذين النوعين من المجتمعات. سماهما برجسون المجتمع الساكن والمجتمع المتحرك. وسماهما بوبر المجتمع المفتوح والمجتمع المغلق. وفى حركتنا الإصلاحية المجتمع المحافظ التقليدى القديم والمجتمع الليبرالى الحديث. ويحاول الإصلاح التحول تدريجيًا من المحافظة إلى التحرر، ومن القديم إلى الجديد. مرة ينجح ومرة يكبو قبل أن يتوقف نهائيًا عن دوره لصالح الاستقطاب الشديد بين التيارين لدرجة الحرب والقتال الذى كلف حتى الآن مائة ألف شهيد فى الجزائر وحدها.

وتتعدد أشكال الغطاء. فهناك الغطاء الدينى المنسوج من الموروث الثقافى المحافظ الذى تكلس وتحجر منذ ألف عام. وأصبح عقيدة واحدة، الأشعرية، ومذهبا فقهيًا واحدًا، الشافعية، وحكمًا سياسيًا واحدًا، الأموية، وفرقة واحدة ناجية، فرقة السلطان. يُدعمه الغطاء الثانى، المؤسسة الدينية التى تشرع للمؤسسة السياسية. فكلاهما شكلان لغطاء واحد متماسك من الدين والسياسية. الغطاء الدينى يستعمل الشريعة للثبات الاجتماعى وأداة للسيطرة والتخويف بقطع اليد للسارق فى الطريق وليس للناهب فى القصر. «إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». ويطبق قانون الردة ضد المعارضين السياسيين والمفكرين الأحرار والناقدين للمجتمع، لأعضاء جمعيات الإصلاح، والمدافعين عن حقوق الإنسان الشرعية، وجمعيات حقوق المرأة واشتغالها بالحياة العامة. ويستعمل الحجاب رمزًا للستر والغطاء. والحجاب ليس للجسد فحسب بل أيضا للعقل والحرية باسم الدين والقيم. وتستعمل كل الحدود من أجل الضبط الاجتماعى، وهو الغطاء الثالث. مع أن الحدود لا تطبق إلا بعد استيفاء شروطها، ومعرفة الأسباب والشروط والموانع. وهى ميادين الأفعال ومحيط السلوك البشرى. فلا تقطع يد بسبب الجوع أو البطالة أو الحاجة أو إذا كان المجتمع كله سارقا. والحدود واجبات. ولا واجبات بلا حقوق. فإذا كانت الواجبات فى تطبيق الشريعة فالحقوق أيضا فى الشريعة، حق المسلم فى توفير الحاجات الأساسية من بيت مال المسلمين، الحق فى الغذاء والكساء والإيواء والعمل والتأمين الصحى والضمان الاجتماعى.

ويتداخل الغطاء الدينى مع الغطاء السياسى والغطاء الاجتماعى فى غطاء واحد سميك منسوج من ثلاثة خيوط أو ثلاثة «راقات». الغطاء الدينى يمد الغطاء السياسى

بشرعيته. والغطاء السياسى يستعمل الغطاء الدينى لتثبيت قواعده، والغطاء الاجتماعى توفره المجتمعات التقليدية المحافظة التى طالما غلفها الغطاءان: الدينى والسياسى عبر التاريخ. ويتولد عنها منظومة واحدة من القيم: احترام الصغير للكبير، أخلاق القرية، كبير العائلة، شيخ القبيلة، رئيس العشيرة، المحافظة على التقاليد، الدفاع عن الهوية، التمسك بالأصالة، الحرص على الخصوصية. وكلها كلمات حق يُراد بها باطل. وهو استمرار الغطاء، وإيقاف الزمن، وأزمة البدائل، وتكفير الخارجين على النظام الدينى والذين يعرفون أن ما تحت الغطاء ليس كل العالم، ولا كل النماذج، وأن هناك عالما خارج الغطاء بنماذج بديلة أو نقيضة.

ويفرض الغطاء نفسه وينشر سطوته على مناهج التعليم التى تهدف إلى طاعة أولى الأمر كما تحث على ذلك الشريعة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]. وتروى أحاديث «من بدل دينه فاقتلوه» أو «من بدل دينه وفارق الجماعة فاقتلوه». وتدعو إلى طاعة الإمام. فالخروج على النظام فتنة، والفتنة أشد من القتل. والإمام فى الصلاة هو الإمام فى الدولة، لا فرق بين الإمامة الصغرى والإمامة الكبرى. وتُقبّل يد الإمام أو كتفه أو أنفه لإظهار درجة الاقتراب كما تقبل حوافر أحصنة الملوك. وتعتمد مناهج التعليم على الحفظ والتلقين لمذهب واحد وعقيدة واحدة. تعتمد على طاعة النصوص والالتزام بحرفيتها، ومحاربة البدع، وتقليد السلف، والحذر من الخلف ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**﴾ [مريم: ٥٩].

وما يحدث فى التعليم يحدث فى الإعلام. فالتعليم إعلام وتوجيه. والثقافة إعلام ودعاية. كل شىء على ما يرام. وليس فى الإمكان أبدع مما كان. نظام الحكم نموذج لكل النظم. والإعانات والتدعيم المالى للمحتاجين ولإنشاء المساجد والجامعات ومعاهد العلم وتأسيس الصحف الواسعة الانتشار والمجزية فى العطاء. كل ذلك من أجل السيطرة على الرأى العام، واحتجاز العقل رهينة للغطاء. فلفظ «العقل» مشتق من «عقل» البعير أى لجامه حتى لا يتحرك فيضل.

والعيون فى كل مكان، أجهزة التنصت والرقابة، والاعتقال بلا محاكمة، جزاء كل من يخرج عن الغطاء، ويتلصص النور، ويتنفس الهواء. لا فرق بين ذكور وإناث،

ورجال ونساء، ومواطن وأجنبى. والشرطة بالمرصاد لتارك الصلاة فى أوقاتها. والجيش يمارس النظام. الأمن مستتب، والنظام قوى إلا من قلة منحرفة ضالة ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

ويزدوج الخطاب عند الناس بين خطاب مطيع لولاة الأمور وفقًا للنظام وكما يفرضه النظام. وهو خطاب اللسان وبين القول والكلام، همسا، ولا يتحرك صاحبه إلا بحساب، يتمنى كشف الغطاء والخروج إلى المكشوف، والسعى إلى العالم الفسيح. والكل يسمع الخطاب الهامس مثل فحيح الأفعى وحركته. والظلام دامس، والجحور ملأى بالأفاعى.

خطورة الغطاء الظلام الدامس الذى يلف القاعة التى بها الجمهور. فلا تتسلط الأضواء إلا على الممثلين. والعين يُبهرها الضوء، ولا ترى فى الظلام. والضوء فى الخارج وليس فى الداخل. تشرئب إليه الأعناق، ولا يرى ما تحت الأقدام. ويفسد الهواء لعدم تجدده، ولغياب الهواء النقى. فيتعود الجمهور على استنشاقه ويعتل بعد مدة، ويمرض ويموت.

خطورة الغطاء انفجار القدر إن لم تكف صمامات الأمان فيه، وهى الإصلاحات الشكلية تحت الضغوط الداخلية والخارجية. ومن كثرة فساد الهواء يكاد الجمهور يصاب بالاختناق، وتنقطع الأنفاس وتضيق الصدور. فتقع الثورات وينكشف الغطاء، ويسدل الستار على خشبة المسرح، ويعود الضوء إلى القاعة، وتفتح الأبواب كى يخرج الجمهور إلى العالم الفسيح.

وإذا ما ضاقت أقلية بالغطاء أحدثت أنفاقا تحت الأرض تبحث فيها عن ملاذ آخر خارج الغطاء أو تفجره من الداخل على رؤوس من فيه، ضيقا بالغطاء. وقد تستطيع الهرب من الأنفاق كى تستقر فى عواصم أخرى لتعلن عن خطورة الغطاء ومآسى من يعيشون تحته، جمهورًا وممثلين.

ليس الحل مزيدًا من الغطاء عن طريق القمع، ومواجهة العنف بالعنف فى دائرة لا تنتهى. فيتحول مجتمع الغطاء إلى مجتمع يغلى، يمارس العنف والعنف المضاد، والقتل والقتل المضاد، داخل الغطاء. ولا تسمع خارجه إلا صيحات الاستغاثة أو صور الأقمار الصناعية الكاشفة بقدراتها التقنية للكشف عما يحدث تحت الغطاء. ليس

الحل هو مزيد من صمامات الأمان، وحوارات القصور حول الإصلاح، ورفض احتجاجات جماعات الإصلاح التى تشكو من طيلة الجلوس على المقاعد، ورتابة المناظر، وإيقاف الزمن. فالمسرح تمثيل وليس حقيقة، والمحتل لاعب وليس مواطنًا. والجمهور صاحب البلاد وليس متفرجًا. والتمثيل صنعة، والحركة الاجتماعية طبيعة. والغطاء هو الفضاء.

ليس الحل هو تفجير القدر من كثرة الضغط الداخلى بعد أن لم تعد تكفى صمامات الأمان. ليس الحل هو كثرة المياه الجوفية حتى يغرق المسرح المغطى بمن فيه على الأرض أو الإكثار من السراديب والأنفاق حتى ينهار البناء كله من القواعد. فالمجتمعات لا تنقلب من حال إلى حال فى غمضة عين. فتاريخها متصل الحلقات. والنتائج التشظى والتفتت والتجزئة، وإيجاد فسيفساء بديل عرقى طائفى لا يقوى على الصمود أمام الكيانات الكلية، ونظم العولمة، وقوى السيطرة والعدوان.

إنما الحل هو التحرر من الغطاء إلى الكشف، ومن ستر المحجوب إلى كشف المحجوب كما يقول الصوفية. بل إن بعض أصحاب الدعوات سموا أنفسهم «كاشف الغطاء». الحل هو فتح النوافذ والأبواب على مصراعيها حتى يخرج الجمهور، ويتوقف الممثلون، أو يقف الجمهور ويتحرك ويقعد الممثلون، ويتبادلان الأدوار خارج المسرح فى الحياة العامة دون تمثيل أو تشخيص.

الحل هو إعادة تأسيس المجتمعات بداية بإعادة بناء ثقافتها الموروثة بحيث تسمح بكشف الغطاء ورفع الستار، وإزاحة الأغلفة لإقامة صرح الدولة المفتوحة النوافذ والأبواب دون التفريط فى القواعد والبناء. يعيش فيها قاطنوها فى حركة دائبة بين الداخل والخارج، وبين الطوابق العلوية والسفلية فى حرية وأمان، دون كاميرات الرقيب، العلنية والخفية. فلا يوجد لصوص فى الصرح لأن قاطنيها مالكوها، والطرقات بين الصروح المشابهة المجاورة آمنة من قطاع الطريق.

حلم أم يقظة؟ خيال أم واقع؟ تمنٍّ أم تحقق؟ سؤال لا يجيب عنه إلا التاريخ.

***

٨- ثقافة الأمراء(*)

كثرت الدراسات حول المثقف والسلطة. وتعددت النظريات فى المثقف عميل السلطة ومسوِّغ قراراتها، والمثقف شهيد السلطة المعارض لها والرافض لاختياراتها، والمثقف الجسر بين السلطة والشعب، يقلل من غلواء السلطة قدر الإمكان، ويحقق مصالح الناس قدر الإمكان، طبقًا للمبدإ الشرعى والقاعدة الفقهية «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح».

وقد كثر التهكم على مثقف السلطة وفقيه السلطان الذى يسوِّغ قراراته، ويضع العربة أمام الحصان. إذا أراد اشتراكية فالفكر والثقافة والدين اشتراكى. وإن غير إلى رأسمالية فبالحماسة نفسها وبدرجة الإقناع نفسها وبنفس درجة الفكر والثقافة والدين رأسمالى. إن أراد الحرب فالوطنية والدين مع اللاءات الثلاث: لا صلح ولا مفاوضة ولا اعتراف بإسرائيل. وإن أراد السلام فبنفس الرجال وبنفس المنطق المعكوس، الوطنية والدين مع السلام. والدليل صلح الحديبية، وآيات مثل ﴿وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. واطمأن الحاكم إلى أن شرعية القرار موجودة سلفًا. عليه أن يتخذه وفقا لهواه، ولمصلحة الحكم. والشرعية جاهزة.

وكثر الترحم على المثقف الشهيد والإعجاب به وبما يرمز إليه من بطولات: شهدى عطية، سيد قطب، من النماذج الخالدة فى التاريخ، التى تضاف إلى نماذج الأنبياء مثل يوحنا المعمدان والسيد المسيح. وإن كان مثقفو السلطان هم الأكثر فإن شهداء السلطان هم الأقل. باعوا الدنيا بالآخرة، وفضلوا الخلود على الزمان، والأبدية على الآنية، والخيال على العقل، والمثل الأعلى على الواقع، والعزيمة على الرخصة، والشهادة على النفاق.

(*) جريدة القاهرة: فبراير ٢٠٠٤.

لم يصدق أحد تسويغات المثقف الجسر بين الأمير والشعب. يعلم الأمير انتهازيته. ويستفيد منه بتوسيع قاعدة المؤمنين به. ويستفيد بعض المثقفين منه بتحقيق بعض المكاسب لدى الأمير. هم ضرورة للحكم وأذكى من مثقف السلطة التابع. ينقد الأمير كى ينال ثقة الناس. ويطالب الناس بالصبر مع الأمير. فقد خلق الله العالم فى ستة أيام حتى ينال ثقة الأمير. والتدرج فى تحقيق المصالح خير من هزة عنيفة تصيب الحاكم والمحكوم.

ولم يعد السلطان يكتفى بهذه النماذج الثلاثة للمثقف، العميل والشهيد والانتهازى، من الطبقة العليا أو الطبقة الدنيا أو الطبقة الوسطى، بل أراد أن يشتغل هو بالثقافة، يرعاها، ويقودها ويجمع بين الثقافة والسلطة. فالسلطة ثقافة، والثقافة سلطة. ولماذا لا يأخذ الأمير كل شىء، ويقوم بدور المخدوم والخادم، الآمر والمأمور، المثقف والسلطان؟

فيقيم السلطان مؤسسات للفكر العربى. ميزانيتها بالملايين. وأعضاء مجلس إدارتها من أصحاب الملايين. والسهم الواحد لا يقل عن المليون بعملة العصر. تجتمع فى أفخم الفنادق فى مختلف العواصم مع أجهزة إعلامها. يتحدث فيها الأمراء، وضيوف الشرف من الوزراء والحكام ورؤساء الوزراء بل ورؤساء الجمهوريات. لا فرق بين القوى الكبرى والقوى الصغرى. فهى تجمعات حكومية باسم الثقافة. ولماذا تترك الثقافة للمثقفين من الفقراء والشحاذين بعد أن لم تنفع معهم رشوتهم بالجوائز. فرفضوها وألقوا بها فى وجه مانحيها ونظمها السياسية التى لم تستطع الدفاع عن كرامة الوطن واستقلال البلاد. والتف حولها طالبو الشهرة والثروة، والوجاهة والمنصب من مثقفى السلطان. وقد يزايد خطابها على الخطاب الوطنى السائد حتى لا تكون الثقافة الوطنية حكرًا على مثقفى الأمة من معارضى السلطان. والثقافة بجاهها ومالها وسلطانها أفضل من الثقافة العرجاء بلا مال ولا سلطان، والمطاردة من الشرطة والجواسيس والأعوان. لا يهم الأثر على الأمد الطويل بل يهم السيطرة على الواقع، والتحكم فى تفاعلاته، وحركاته، حتى لا ينفلت الزمام، ويتغير مسار التاريخ. لا يهمها إعادة بناء الثقافة الموروثة بحيث تكون حاملاً للتقدم، بل إبقاؤها على حالها. فالمحافظة الموروثة خير دعامة للنظم القائمة. مثلها مثل أحزاب السلطة الحاكمة، وزارة من الوزارات ترعاها الدولة، ووزارات الثقافة التى تخدم الدولة، وأجهزة الإعلام

الرسمية التى تحافظ على النظام. الثقافة هنا ترف وتجميل، وادعاء حداثة، وصناعة إعلام. تغطّى على الثقافة الوطنية، وتحجب المثقفين الوطنيين. وفى المال والشهرة إغراء وجذب. أموال تنفق، وإعلام يصفق، ومؤتمرات تعقد، ومكافآت تصرف، وجوائز تمنح. فالثقافة رعاية اجتماعية، تأمينات وضمانات لمن يحتاج من المثقفين الضائعين المتأزمين بين شرف الكلمة والحاجات الأساسية. ولسان البعض يقول «الضرورات تبيح المحظورات». ولسان فريق آخر يقول: «تجوع الحرة ولا تأكل بثديها».

كما تتجلى ثقافة الأمراء فى المهرجانات الشعبية التى ينظمونها باسم الدولة ودعوة كل المثقفين من مختلف التيارات الفكرية والسياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، زينة للمجالس وربما شراء للذمم. وبعد كرم الضيافة والاستقبال وهم ضيوف الدولة وزوار الأمير لا يطلب منهم شىء إلا الأحاديث الجانبية فى قصور بعض الأمراء وموظفى الدولة الكبار وبين حلقات الشباب وربما بين صغار الصحفيين ليكتبوا ما يشاءون، وموافقة الرقابة على ما ينشرون. لا يتصدر للخطاب العام إلا من حاز ثقة الأمير، واطمأن على توجهه الفكرى. فهو يتكلم باسم الأمير. وللضيف على المضيف حق الاحترام والاعتراف بالجميل. هو عرس سنوى تتحول فيه الثقافة إلى إعلام. يجمع بين التراث والحداثة، بين الحرف التقليدية ومراكز الصناعة الحديثة. والكل بفضل الأمراء وتوجيهاتهم الرشيدة. أسماؤهم أسماؤها، وصورهم صورها. فيخجل الإنسان من معارضة الأمير، ومآثره واضحة للعيان بعد أن حوّل الصحراء القاحلة إلى أرض خضراء، والقرى التقليدية الحرفية إلى مراكز صناعية حديثة. الغرب الصناعى المتقدم وسط الصحراء العربية الخالية. وبفضل عوائد النفط وخبرات الغرب وتوجيه الأمير يتم التعمير. والعمالة المهاجرة رخيصة. والكفيل ضامن لحسن السير والسلوك. والشرطة ترعى الأمن، وتحفظ النظام. الغرب وسط الشرق مثل هونج كونج وتايوان وكوريا الجنوبية واليابان. كل شىء مستورد وسط الصحراء المحلية القاحلة. الفنادق مثل القصور لرجال الأعمال، والقصور مثل الفنادق لأصحاب الأموال. والمال ليس له وطن، والوطن ليس له أهل. والأمراء أصحاب الأموال هم الواسطة بين الأهل والوطن.

إذن، ما يحدث للأمراء خارج الدول يحدث للأمراء داخل الدول. وتقام المهرجانات الثقافية والشعبية باسم التراث أى المحافظة على القديم وبوصفه أحد أوجه الحداثة ومقومات الدولة، ورعايتها للثقافة والفنون الشعبية. وتجند قوى الدولة كلها الأمنية وإمكاناتها المادية لإنجاح المهرجان. ويتصدر الأمراء الدعوات والاحتفالات والاستقبالات. فالدولة تحتفل بالثقافة، والثقافة تحتفى بالدولة. والوئام سائد بين الاثنين، لا تعارض ولا تناقض بل وئام واتفاق. ولا خصام ولا عداء بل صحبة وألفة.

ويتبادل الأمراء والمثقفون الألقاب. فالأمراء أصحاب السمو والمعالى والسعادة. والمثقفون كبار ورواد وعظماء، مشهورون ومبدعون. وينتهى دور الثقافة فى النقد والتحليل والترشيد، والنصح لولاة الأمور. بل إنه من عدم اللياقة نقد الضيف مضيفه وهو فى منزله، وسط أهله وعشيرته، والموائد ممتدة، والكرم فياض، والقصر عال، تتدفق العروبة من مياهه وينابيعه وأشجاره ولباس أهل الدار.

والنشرات الإعلامية وافرة، والكتب عن الملوك والأمراء عامرة، فذكراهم خالدة. يحكمون أمواتًا وأحياء. والأوراق ملونة، والطباعة فاخرة، والأدباء الشبان يبحثون عن ناشر أو ينشرون على نفقاتهم الخاصة، بقروش زهيدة، فى طبعات شعبية. تتراكم عبر التاريخ وتنشئ مدارس فكرية وأدبية ونقدية كثقافة مضادة، وأدب بديل.

وقد تهتز اقتناعات عن التطور والحداثة عن طريق الثقافة الوطنية وبفضل المثقفين الوطنيين، والمعارضة الوطنية. قد تقل المعارضة لأمراء الثقافة لما يبدونه من خير لنوع من المجتمعات فى مرحلة انتقال من القديم إلى الجديد، ومن البداوة إلى الحضارة، ومن المحافظة إلى التحرر. وقد تتعدد النماذج. فالثورة الفرنسية والثورة البولشفية والثورة الإيرانية والثورة العربية نماذج تأثر بها المثقفون الوطنيون والمفكرون الأحرار. وأضافوا إليها ثقافة الأمراء فى المجتمعات التقليدية.

والموضوع الرئيسى فى ثقافة الأمراء براق، ما يشغل الناس جميعًا، حوار الذات مع نفسها قبل حوارها مع غيرها، وإعادة ترتيب البيت من الداخل قبل المواجهة مع الخارج. لا يتحدث فيه إلا الكبار من الوزراء أو الأمراء ممن يتحكمون فى أقوالهم، ويضبطون تحليلاتهم، ويعرفون كيف يفرقون بين النافع والضار من واقع المسئولية، ويحسبون لأقوالهم ألف حساب. ولا ضير أن يتم رفع الصوت والجهار بنقد الحكام

والدعوة إلى ضرورة تداول السلطة، ونقد مؤسسات القهر فى جهاز الدولة، وأنظمة القهر فى الثقافة، تنفيسًا عن المكبوت، وتخفيفًا لدرجة الغليان، طبقًا لمبدإ أهون الضررين بين جماعات العنف المسلح وتفجير المبانى أو دوائر المعارضة من المثقفين الوطنيين لتنوير العقول. المعارضة المسلحة تقضى على النظام على الأمد القصير وهو الضرر المبالغ فى حين أن ثقافة المعارضة قد تغير النظام على الأمد الطويل. والأمير لا يفكر إلا على الأمد القصير.

ولا تتغير سياسات السلطان بهذه المهرجانات الثقافية، ولا تتبدل اقتناعات السياسة. فالثقافة السلطانية هنا مظهر من مظاهر الحداثة والتجديد فى وقت تتهم فيه الأنظمة بالتخلف، وتياراتها المعارضة بالأصولية، وتمارس فيها جماعات المعارضة العنف فى الداخل والخارج. لا يحدث تغيير إلا بالقدر الضئيل، وفى الشكل دون المضمون: جلسات حوار وطنى بين المسئولين وليس فى أجهزة الإعلام بين التيارات السياسية الرئيسية فى البلاد، وبتوسيع دائرة مجالس الشورى المعينة، وبزيادة المؤتمرات والندوات المغلقة وليس على الصعيد الوطنى العام. والذريعة المؤسسة الدينية حاكمة، والمذهب يقف بالمرصاد لغيره من المذاهب، والمجتمع محافظ، والتدرج واجب، وقد خلق الله العالم فى ستة أيام. والصبر فضيلة. مع أن سرعة الزمن أكبر بكثير من سرعة اللحاق به. وبعد التوقف ما يقرب من مائة عام فإنه من الحكمة الإسراع فى الخطوات من أجل اللحاق بالزمن. وإذا كان العالم قرية واحدة، ووسائل الاتصال منتشرة فوق أرجاء الأرض، والأطباق فوق الأسطح، والإرسال على موجات الأثير فلا يمكن إيقاف الزمن واللحاق بالعصور.

ومع ذلك فاللاعب بالنار يحترق بها. فالثقافة سلاح ذو حدين. تسوِّغ وتنقد، تجمّل وترفض، تثبّت وتتجاوز. والفكر السياسى أيضا سلاح ذو حدين. ومادام العقل السياسى قد نشط فإنه يصعب السيطرة على مساره وتوجيه حركته كما يبغى السلطان.

قد تتسع دائرة الأمراء الشبان فيعتنقون ما يقولون، ويستقلون بما يعقلون. ويمثلون بديلاً عن أمراء الثقافة التقليديين بفضل ثقافة الأمراء الشبان. والتاريخ معهم، والضغوط الدولية قادرة على تخلى أمراء الثقافة عن أنساقهم التقليدية، والانفتاح على الداخل، والحوار مع جماعات المعارضة بدلا من تركها تمارس العنف فى الخارج.

وقد تتسع أيضًا دائرة المثقفين الشبان الذين يلتفون حول الضيوف ويحاورونهم فى بهوات الفنادق أو فى البيوت والصالونات الثقافية. فها هم أولاء يحاورون من يقرءون لهم. وها هم أولاء يقرءون كتبهم بعد أن كانت ممنوعة أو مهربة فأصبحت متاحة.

وقد تهب رياح التغيير على المنطقة العربية كلها، وتجبر الأنظمة السياسية على التغيير كرهًا أو طوعًا طبقًا للنموذج الليبى أو للنموذج العراقى، طبقًا لمنطق العصا أو منطق الجزرة. ومن الأفضل أن تُعد ثقافة الأمراء مجتمعاتها، وتعوّد شعوبها على استقبال ألسنة اللهيب والصفيح ساخن حتى لا تحرق بل تمتص وتشتد وتقوى بعد أن تعودت على السخونة من أجل انصهار قريب، وذوبان القديم لصالح الجديد من أجل تغيير الأشكال والمادة واحدة.

وقد يتغير الأمراء، «اليوم خمر وغدًا أمر»، عندما يشتد الكرب، ويصبح المركب كله فى مهب الريح، والكل مهدد بالغرق، الربان والركاب. عندئذ تتحول ثقافة الأمراء إلى ثقافة الشعوب، وثقافة التجميل إلى ثقافة التغيير، وثقافة الإعلام والإعلان إلى ثقافة النقد والتطوير. وهنا يمد الأمير الوطنى يده للمثقف الوطنى يشد أزره، ويطلب عونه لمواجهة الرياح العاتية والصمود فى وجه الأمواج العالية

***

٩- من غرناطة إلى الرياض(*)

دوّت فى الشهر الماضى انفجارات فى الرياض فى مجمعات سكنية أسماؤها: إشبيلية وغرناطة وقرطبة! وشتان ما بين مدن الأندلس القديمة التى كانت منارة للعلم والفن والأدب والفلسفة حيث عاش المسلمون واليهود والمسيحيون وكل الملل فى تآلف وانسجام، يشاركون فى صنع حضارة واحدة، ونموذج إنسانى عام لكل الشعوب، وبين المدن السكنية الجديدة فى الرياض التى تحمل الأسماء نفسها ويعيش فيها الأجانب وبخاصة الأمريكيون، فى «جيتو» مغلق تحت الحراسة المشددة، خبراء أجانب يعملون على تحديث البلاد وتصنيعها، ومستشارون عسكريون للدفاع عنها وعن نظام العالم الجديد الذى يقوم على القطب الواحد. ولا ندرى ماذا فى القلب وما وراء الستار؟

شتان ما بين الحضارة الإسلامية القائدة فى الأندلس والتى كانت نموذجًا للتقدم فى العصور الوسطى الغربية وبين الحضارة الإسلامية الآن فى الحجاز التى تعد نموذجا للمحافظة فى العصور الإسلامية الحديثة. فالحجاز حصن للمحافظة الدينية والسياسية باسم الدين. صورتها فى ذهن العامة أنها مكان بيت الله الحرام. ومنه نشأ الإسلام، وخرج فاتحًا شرقًا وغربًا. أراضيه مقدسة. ومدنه لها حرمة، حرمة الشهر الحرام. وما أسعد من يأتى أجله فيه فى وقت الحج أو قبله أو بعده، فيوارى الجسد فيه.

ومع الدين تأتى الدنيا. فالحجاز بلد النفط والرزق والعمل والهجرة. يأتيها الباحثون عن الأرزاق بعد أن ضاقت بهم أوطانهم من اليمن ومصر وفلسطين وسوريا. ويقف المواطنون بالأيام والليالى أمام سفارات السعودية فى العواصم العربية، لعلهم يستطيعون الحصول على تأشيرة للهجرة أو التصديق على عقد للعمل. ولا ضير أن يستغلهم الكفيل أو أن يعطيهم أقل القليل ويأخذ أكثر الكثير. ولا غرابة أن تحجز

(*) جريدة الزمان: ١٥ يونيو ٢٠٠٣.

جوازات سفرهم، عمالاً ومثقفين، أجراء وأساتذة جامعات حتى لا يغادروا فى أثناء العمل، سجناء فى أوطانهم، وسجناء فى غربتهم.

وفى الوقت نفسه، تمثل الحجاز ونجد شرف الكلمة والثبات على المبدإ وبخاصة فى قضية العرب الكبرى فى فلسطين. فقد ضحى الملك فيصل بحياته لأنه تجرأ على أن يتفوه أمام وزير خارجية أمريكا السابق الذى كان يشوح بأصبعه فى وجهه أنه نوى أن يصلى فى القدس بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م. ومازالت ترفض التطبيع مع الكيان الصهيونى قبل الانسحاب من الأراضى المحتلة إثر عدوان ١٩٦٧. ومازالت الكتلة الرئيسية مع مصر وسوريا فى إعلان دمشق للدفاع عن الخليج. قد تنتهج أحيانا مع مصر سياسة مزدوجة مراعاة للعالم ذى القطب الواحد، سواء على مستوى الخطاب أو على مستوى الفعل. مازالت هى الحصن الحصين للأمة. ومازالت جامعاتها مثل الأزهر والزيتونة والقيروان وأم درمان تمثل قلاعًا للثقافة الإسلامية التقليدية التى مازال الناس فى حاجة إليها فى إفريقيا جنوب الصحراء وفى آسيا، فى إندونيسيا والملايو وآسيا الوسطى.

إن دلالة تفجيرات الرياض يمكن إدراكها بسهولة. فالضغط من أعلى يولّد الضغط من أسفل. وضغط النظام السياسى من أعلى على مظاهر الحياة العامة، مرة باسم الدين، ومرة باسم الدولة إنما يولّد هذه التفجيرات من أسفل. فغليان القدر المغطى لابد وأن يولد بخارا من فتحات الغطاء كما هو الحال فى أوانى الضغط «البرستو». والحل هو تخفيف الضغط الخارجى من أعلى حتى يخف الضغط الداخلى من أسفل وذلك عن طريق التعددية السياسية، وحرية التعبير، وممارسة النقد بدافع الإصلاح، وعدم احتكار الرأى فى فرقة واحدة ناجية حتى ولو كانت الوهابية. فهناك وهابية جديدة. تحافظ على الأصول دون التضحية بالفروع. وتتمسك بالتراث السلفى دون أن تضحى بروح العصر. وقد كان السلفيون كذلك منذ أحمد بن حنبل حتى ابن تيمية وابن القيم. بل إن الحركة الإصلاحية كلها عند الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وعلال الفاسى والكواكبى تنتسب إلى السلفية. كما أن الذين أعطوا الأولوية للإصلاح والتجديد والعصر على المحافظة والقديم والماضى يسمون أيضًا «السلفيين الجدد».

فلم الانتظار طويلا على الإصلاح الذى يفرض نفسه منذ أكثر من نصف قرن؟ لقد انتظرت اليمن طويلا على حكم الأئمة حتى قامت الثورة فى عام ١٩٦٤م. وتحولت من المدن المغلقة فى المساء وخلع أسنان المعارضين وتعليقهم من أرجلهم فى الخطافات إلى دولة ثورية عربية تقدمية تقوم على التعددية السياسية والانتخابات الحرة، واستمرار التاريخ والتراث والأصول فى «حزب الإصلاح».

ولماذا اضطهاد الإصلاحيين فى الداخل ودفعهم إلى الهروب إلى الخارج حتى تصبح لندن، البلد الغريب، هى مهد الإصلاح الإسلامى ومنبره، ومأوى لكل المفكرين الأحرار مثلما كانت باريس منذ أكثر من قرن مأوى للأفغانى ومحمد عبده أو للقوميين العرب من الشام هربًا من اضطهاد العثمانيين أو بيرم التونسى وغيره من المناضلين ضد الاستعمار؟ فالغرب وحده هو الذى يقبل النقد، وهو وحده مهبط الحرية.

لقد أحسنت الرياض صنعًا بقبول عريضة المثقفين السعوديين وقراءتها وسماع ما فيها بعد أن ترددوا فى قبولها باليد فوصلتهم بالبريد. تطالب بالحريات العامة، والتعددية السياسية والانتخابات الحرة، والوزارة المسئولة أمام البرلمان، والبرلمان المسئول أمام الشعب. فلا خاب من استشار. وأمر المسلمين شورى بينهم، لا عن طريق مجالس معينة من أمراء العائلة المالكة أو فقهاء السلطان بل من ممثلى الجيل الجديد وفقهاء الأمة.

ولا خوف من حقوق الإنسان. فكل ما جاء فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان لا يناقض الشريعة فى شىء. إنما الخلاف فى الأسماء لا فى المسميات. فقد قامت الشريعة ابتداء كما يقول الشاطبى فى «الموافقات» على المصالح العامة. والمصلحة أساس التشريع كما قال الطوفى. تهدف الشريعة إلى تحقيق مصالح خمس: أولاً، الدفاع عن الحياة أى النفس وهو ما سمى فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، حق الحياة. ثانيًا، الدفاع عن العقل وهو ما سمى فى الإعلان العالمى حرية التفكير، والحق فى العلم والمعرفة. ثالثًا، الدفاع عن الدين أى الحقيقة الثابتة التى يتفق عليها الجميع. رابعًا، الدفاع عن العرض والكرامة وهو ما سمى فى الإعلان حق الإنسان بوصفه قيمة عليا. خامسًا، الدفاع عن المال أى الثروة الوطنية وحق كل شعب فى امتلاكها. ففى مقاصد الشريعة تتحقق مصالح الفرد والجماعة، المواطنين والشعوب، فى حين أن الإعلان

العالمى يقوم على تصور فردى نسبى خالص للإنسان، بما فى ذلك الانتحار والإجهاض والشذوذ الجنسى. إن مقاصد الشريعة تقوم على مفهوم فردى وجماعى ومعيارى لحقوق الإنسان والشعوب التى يتفق عليها العقلاء. لذلك أكمل «الإعلان العالمى لحقوق الشعوب»، حق كل شعب فى تقرير المصير فى الجزائر عام ١٩٧٧ «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان» الذى صدر مرتين، الأولى فى أثناء الثورة الفرنسية، والثانية بعد الحرب العالمية الثانية.

ولا خوف من مؤسسات المجتمع المدنى. فهى التى تقيم التوازن بين المجتمع والدولة، بين الشعب والنظام السياسى. هى التى تقوم بوظيفة الحسبة فى المجتمع المعاصر، أى الرقابة على ما يحدث فى المجتمع. وهى منظمات حقوق الإنسان التى تراقب الانتهاكات الشائعة للمواطنين، الاعتقال بدون أمر قبض، والبقاء فى السجون دون تهم أو دفاع، والتعذيب داخل السجون، وسوء المعاملة، و«اصطياد الإنسان» داخل السجن منذ «حفلة الاستقبال» التى تعد للسجين بالركل والضرب والشتم والسب حتى تسقط إنسانيته ويقبل ذله. وهى أيضا الاتحادات والروابط والنقابات المهنية التى تخرج عن دائرة «الحرفة» إلى الحق العام. وأيضا نوادى هيئة التدريس بالجامعات ونوادى الأحياء.

ولا خوف من تداول السلطة، فالدوام والبقاء لله وحده. ولا يوجد كامل الأوصاف فى البشر، العالم والوطنى والبطل الأوحد الذى لا يفنى إلا بانقلاب بشرى أو موت إلهى. السلطة تنفيذية خالصة. وهى مسئولية هم وكرب ومساءلة فى الدنيا والآخرة «والله لو عثرت بغلة فى العراق لسئلت عنها يا عمر لماذا لم تسو لها الطريق؟». السلطة الحقة هى سلطة العلماء، سلطة الثقافة. والقانون أى الشريعة هو الذى يحكم. والحكم ينفذ، والقضاء يفصل.

إن الأسلوب الأمنى فى تناول تفجيرات الرياض، ووصف المنفذين بالمجرمين الآثمين الذين روّعوا الأبرياء، وسفكوا دماء الشهداء، كل ذلك لا يحل المشكلة، ولا يقضى على جذور العنف. والتصور الأمنى للعنف قصر نظر. وذلك كالنعامة التى تخفى رأسها وجسدها محط الأنظار. فالظواهر الاجتماعية ومنها العنف السياسى لا يوجد إلا حل سياسى لها. فالعنف الظاهر هو رد فعل على العنف الباطن. والتفجير المرئى نتيجة للتفجير المكبوت.

إن وجود قوات الاحتلال الأجنبى على أرض الوطن سواء فى شكل قواعد عسكرية أو خبراء أجانب أو شركات صناعية أو ضباط أمن وحراسة، كل ذلك عنف على أرض الوطن وفى قلب المواطنين. ولا يوجد عنف ضد مستشفى أو مدرسة أو جامعة مما يخدم مصالح المواطنين. استقلال الأوطان حجة قوية للدفاع عنه إذا ما تقاعس عن ذلك أولو الأمر. وفى الثقافة الشعبية التى لها رصيدها فى الفقه القديم أن شبه جزيرة العرب مقصورة على العرب. وقد أقسم عمر بن الخطاب بألا يوجد فى جزيرة العرب دينان. لذلك استنبط الفقهاء عدم جواز بناء الصوامع والبيع أى الكنائس والمعابد فى شبه جزيرة العرب حتى يبقى للتوحيد انعكاسه على الأرض والشعب والثقافة.

إن الصراحة لا تعيب، ونصح أولى الأمر واجب على المسلمين، خاصة وعامة. كان النقد للنظام السياسى فى شبه الجزيرة العربية قبل ذلك يُعَدّ عيبًا فى الذات الملكية بل وتجديفا على الذات الإلهية. والآن، وبعد احتلال أمريكا للعراق وتسليم بغداد، النظام السياسى فى شبه الجزيرة العربية هو التالى لتكرار نموذج العراق. فهو الذى يولد الإرهاب لأن النتيجة الطبيعية للقمع من أعلى هو الإرهاب من أسفل. الصراحة مع أولى الأمر واجبة حرصًا على شبه الجزيرة العربية، مهد الرسالات وإرث الأنبياء، وبها بيت الله الحرام، أول بيت وضع للناس ببكة. وماذا يجدى الخوف من السلطان أو نفاقه لو وقعت الواقعة، وتكرر نموذج العراق؟

* * *

١٠- تصدير الخوف(*)

أصبح الخوف من الموضوعات المثارة هذه الأيام مثل العنف، والإرهاب، وصدام الحضارات. وتجاوز ما عرف فى «أفلام الرعب»، والإثارة، والعنف، والخوف الميتافيزيقى من النفس، والقدر، والمصير. أصبح الخوف الآن هو الخوف من الآخر المغاير، الخوف من «المغايرة» و«الآخرية». فبعد أن يثق الإنسان بنفسه، وربما ثقة زائدة تصل إلى حد الغرور وكما هو الحال فى أفلام البطولة المطلقة، البطل الذى لا يُقهر، يبدأ فى الخوف من الغير، أن يسلبه ثقته بنفسه وبخاصة لو كانت قد تأسست على السلب والنهب والعدوان. يظل الآخر بالنسبة إليه هو «جسم الجريمة» الذى يذكّره بماضيه وبخاصة لو كان الضحية لم يحتضر بعد، ومازالت به بقايا من نفس الحياة. يقاوم الموت كى تعود إليه الحياة من جديد.

وهذه هى الحالة الراهنة بين العرب والغرب الأمريكى والتى تأخذ عدة صيغ. هناك طرفان يتصارعان أكثر مما يتحاوران مثل: الإسلام والغرب، العرب والغرب، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، الحوار العربى الأوروبى. وهناك أحيانًا طرف واحد يعبر عن رؤيته للطرف الآخر وإملاءاته عليه مثل: الحوار المتوسطى، الشرق الأوسط الكبير، الإصلاح، الإرهاب، العنف ...إلخ عند طرف. والعدوان، الاحتلال، الغزو عند طرف آخر. وتزايد العنف والإقصاء المتبادل بين الطرفين عودا إلى عصر الاستقطاب داخل أوروبا منذ الحرب الباردة حتى نهايته وسيادة القطب الواحد أو حتى قبل ذلك منذ القرن التاسع عشر، الصراع بين الدول المستعمرة والشعوب المستعمَرة والذى انتهى بحركات التحرر الوطنى فى الخمسينيات والسّتينيات وتكوين الدول الوطنية المستقلة الجديدة وبخاصة فى الوطن العربى وأفريقيا.

(*) جريدة الاتحاد: ٢٦ يونيو ٢٠٠٤، جريدة الزمان: ٢٦ يونيو ٢٠٠٤.

زادت الاتهامات المتبادلة بين الطرفين ووصل الأمر إلى العدوان من طرف على طرف، والمقاومة من طرف للطرف الآخر. وكان الأبرياء هم الضحية من الطرفين، الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وتعذيب السجناء ضحايا العدوان، وخطف الرهائن وتهديد حياتهم أو قتلهم، والعدوان على الآمنين من طرف آخر. وانقطع الحوار الهادئ الرصين الخصب فى عالم لم يعد يتحمل سفك الدماء.

وربما تكون هذه اللحظة التاريخية لحظة فارقة. فالتاريخ يتحرك، والدوائر تدور طبقا لقانون القيام والانهيار، النهضة والسقوط، والذى يعادل القوانين الكونية مثل الغروب والشروق. فللتاريخ قوانينه كما أن للطبيعة قوانينها. ودورات الحضارات وتتابعها مثل دورات الأفلاك. فلربما ما يدور الآن من صراع وصدام مؤشر على حضارة تأفل، وحضارة تبزغ. واللحظة الحاضرة تكشف عن هذا التحول. فالإنسانية الآن على مفترق الطرق.

والسؤال الآن: من يخاف من؟ من يصدّر الخوف لمن؟ من يرعب من؟ وهل تصدير الخوف والرعب والإرهاب حقيقة أم وهم، واقع أم خيال؟

إن المغالاة فى استعمال القوة من طرف ضد الطرف الآخر إنما يهدف إلى تصدير الخوف منه إليه. فالمغالاة فى استعمال القوة فى غزو أفغانستان، إطلاق صاروخ بملايين الدولارات على خيمة بعشرة دولارات، واستعمال أحدث أنواع الأسلحة بما فى ذلك أسلحة الدمار الشامل على مقاتلين فى الجبال ببنادق من الحرب العالمية الثانية من أجل تصدير الخوف إلى الآخر بعد أن خاف الطرف المعتدى، على نفسه وقوته وصورته وهيبته بعد حوادث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م. والمغالاة فى استعمال القوة فى العدوان على العراق بجميع أنواع الأسلحة إنما هو أيضا تصدير للخوف. وما يفعله الكيان الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى والمخيمات والمقاومة إنما هو تصدير للخوف أيضا بدلا من الرعب الذى يعيشه من العمليات الاستشهادية التى جعلتهم يتوقعون الموت فى أي لحظة ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢].

والتهديد المستمر بالعدوان على سوريا وليبيا وإيران والسودان واليمن، كل ذلك من أجل تصدير الخوف حتى لا يجرؤ أحد على تكرار ما حدث فى سبتمبر. وتظل صورة أحد الأطراف البطل الذى لا يُقهر، «رامبو» صاحب القوى الخارقة، وراعى البقر الذى

يهزم اللصوص والأشرار. وعقدة الخوف هى التى أصبحت تسيطر على المزاج الأمريكى والمزاج الصهيونى، الخوف من انتفاضة ضد الهيمنة الأمريكية والصهيونية على العالم، الخوف من يقظة الضحية حتى وهو فى لحظة الاحتضار.

والحقيقة أن الغرب الأمريكى هو الذى يخاف، ويغطى خوفه بتصدير الخوف للآخرين. يخاف وبخاصة من العرب المسلمين لأنهم مازالوا أحياء حتى ولو بدا عليهم التعثر والتخبط والتفرق والتشيع والإحباط واليأس واللامبالاة. يخاف منهم لأنهم أصحاب تاريخ، ووعى تاريخى يثير فيهم النخوة القديمة، ولحظات الانتصار الأولى، وحلم العودة إلى عصر النبوة والخلافة والذى يظهر بوضوح لدى الحركات الأصولية وبخاصة أن الولايات المتحدة بلا تاريخ إلا التاريخ الأسود، استئصال الشعوب الأصلية فى نصف الكرة الغربى، وإحلال كل المطرودين والخارجين على القانون والباحثين عن الذهب من أوروبا عبر الأطلنطى إلى الأراضى الجديدة، وإحلال سكان مهاجرين محل السكان الأصليين. وهو نفس ما فعله الكيان الصهيونى فى فلسطين.

ويخشاهم لأن حاضرهم مازال مرتبطا بماضيهم وتراثهم. لم يقطعوا معه كما فعل الغرب باسم الحداثة والتقدم. فرموا الطفل مع الماء فى طقس العماد طبقا للمثل المشهور. ثم عاد اليوم بنقد الحداثة ذاتها لصالح ما بعد الحداثة. وبدأ يهدم ما دافع عنه واستشهد فى سبيله، العقل، والعلم، والتقدم والإنسان. أعلن نيتشه من قبل «إن الله قد مات» و«يحيا الإنسان». ثم أعلن بارت بعده بنصف قرن «إن الإنسان قد مات» ولم يعد أحد يحيا. والكتابة تبدأ من الصفر. والمعنى لفظ. وانقلب العقل إلى اللاعقل، والقانون إلى الفوضى، والمنهج إلى اللامنهج.

ويخافهم لأن المستقبل أمامهم مفتوح بإمكانياتهم المادية والبشرية والعقلية وبموقعهم الجغرافى. يسيطرون على ما يزيد على ثلاثة أرباع مصادر الطاقة التقليدية. ويمثلون ما يزيد على خمس سكان العالم. كما يمثلون أكثر من نصف العمالة الفنية المتخصصة إلى الغرب. ويربطون بين القارات الثلاث، أوروبا وآسيا وأفريقيا. ولهم تجربة تاريخية ترشدهم إلى مستقبلهم. وما نجح أولا قد ينجح ثانيًا. ومن ذاق الريادة أولا فإنه لن يرضى بدور التلميذ إلى الأبد.

ولقد صمدت هذه المنطقة عبر التاريخ منذ غزوات الإسكندر الأكبر والإمبراطورية الرومانية، مرورا بالغزوات الصليبية حتى الاستعمار الغربى الحديث. واستطاعت أن تدافع عن استقلالها وحريتها حتى حركات التحرر الوطنى الحديثة التى انتهت بتكوين الدول الوطنية المستقلة. ومازالت صامدة ضد الموجة الثانية من الاستعمار الجديد ممثلا فى العالم ذى القطب الواحد، ومواجهته بالمقاومة الوطنية فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان. وهى حريصة على الموت والشهادة قدر حرص الأمريكى الصهيونى على الحياة والدنيا. ومازالت تمثل احتمال بزوغ قطب ثان منها فى مواجهة القطب الأول بعد أن خفتت روح جيفارا فى أمريكا اللاتينية المثقلة بالفقر والجريمة والمخدرات، وإفريقيا المثخنة بجراح التصحر والفقر والمرض والديون الخارجية والحروب الأهلية.

ونحن نخاف منه وهما لا حقيقة. فهو حضارة العلم والتقدم والصناعة والحداثة والقوة والسيطرة والهيمنة والغلبة. العصر عصره، والحضارة حضارته، والعلم علمه، والعقل عقله، والعمل عمله. منه ننقل العلوم والصناعات. ونتخذه نموذجًا يحتذى به للتقدم والعمران. وحكمتنا أيديولوچياته السياسية فى تاريخنا الحديث من ليبرالية واشتراكية وماركسية وقومية. واستطاعت مزاحمة الإسلام والتنافس معه لدرجة الاستبعاد والإقصاء باسم العلمانية والحداثة ضد السلفية والأصولية. وهو تخوف لا خوف لأنه مبنى على وهم. فقد نقد الغربيون أنفسهم حضارتهم وجوانبها العدمية بداية بالشك واللاأدرية وحسبان أن الإنسان مقياس كل شىء. ولا يوجد إمكانية الاتفاق على قيمة واحدة. فالحقيقة وجهة نظر. وتكلم كثير من فلاسفة التاريخ فى حضارتهم مثل أشبنجلر عن «أفول الغرب»، وهوسرل عن «أزمة العلوم الأوروبية»، وبول آزار عن «أزمة الوعى الأوروبى»، وماكس شيلر عن «قلب القيم»، ورسل عن «محاكمة الغرب»، وقد وصف برجسون الحضارة الغربية بأنها آلات لصنع الآلهة.

نخاف من عقدة العظمة التى بناها فى نفسه باسم حضارة التفوق والانتصار والغلبة، كما نخاف من عقدة النقص التى تربت فينا بعد الانبهار به وتقليده. الغرب يبدع ونحن ننقل. هو يؤلف ونحن نترجم. يضع النماذج ونحن نطبقها. يُنظّر ونحن نعمل. هو الإمام ونحن المأمومون. يخطط للمستقبل ونحن نعيش فى الماضى. يحلل ويدرس ويفهم الأسرار ويكتشف المجهول ويرتاد الصعاب ويركب المخاطر ونحن

نؤمن ونستقبل المعلومات الجاهزة والمعطيات الأولى. ولا نقترب من المحرمات الثلاثة: الله، والسلطة، والجنس أو الدين والسياسة والعادات والأعراف الموروثة.

ومع ذلك قضت حركات التحرر الوطنى فى عشرين عاما أى فى جيل واحد على استعمار بدأ منذ عدة قرون وعلى أجيال متتابعة. فهو إنجاز ضخم. ومازالت الدول الوطنية تقاوم مظاهر الاستعمار الجديد الاقتصادى والثقافى والإعلامى. ولم يعد الغربى يأمن على حياته من جماعات العنف التى تبادل عنفه بعنف مضاد، وإرهابه بإرهاب مضاد. ومازال الجهاد معينا لا ينضب فى نفوس المظلومين والمقهورين.

الصراع بين الطرفين إذن هو صراع إرادات، من يصدّر الخوف لمن؟ من يُلقى فى قلب الآخر الرعب لمن؟ ليس عن طريق التخويف بقوى الردع النووى أو بالاحتلال التقليدى المباشر أو بالتهديد بالعدوان أو بالتهميش والإهمال للأصدقاء التقليديين بل بالمغالاة فى استعمال القوة، وزيادة إيقاع التوتر فى عالم يسوده الاستقطاب أكثر من الحوار، تنفيذا لصدام الحضارات وليس تطبيقا لحوار الثقافات. ويظن اليمين المحافظ والمسيحية الصهيونية أنها بتصدير الخوف تخيف دون أن تعلم أنها بتصدير الخوف يصدر الطرف الآخر الرعب لها. فى الصيف القادم الزلزال الرهيب عندما تتحرك الخلايا النائمة فى عالم فقد عقله واتزانه وأصبح ضحية للفعل ورد الفعل. وغابت الحكمة التى طالما بحث عنها العقلاء.

وتحول الخوف عند الغربى إلى رعب نظراً لعدم اطمئنانه على حاضره من سوءات أعماله فى ماضيه بالنسبة للآخرين ﴿**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**﴾ [آل عمران: ١٥١]. يخاف أن يأتيه الموت من حيث لا يدرى بعد أن قتل الشعوب واستأصل السكان الأصليين ليحل محلهم. ودون مصالحة تاريخية بين الطرفين على غرار ما فعلته «لجنة الحقيقة والمصالحة» فى جنوب إفريقيا، يستمر تصدير الخوف من طرف لآخر. فهل يستطيع الغرب أن يندم على ما فعل ويرد الاعتبار للشعوب التى استعمرها ونهبها حتى تستطيع الشعوب أن تقول «عفا الله عما سلف»؟!

***

١١- مات الفرد، عاش الشعب! (*)

ظن الغرب أنه لطول حكم القادة العرب، وغياب تداول السلطة ـ فأطول حكام العالم تعميراً لدينا ـ أن كل شيء بيد الحاكم، قضايا الحرب والسلام، والاقتصاد والمال. فتعاملوا معهم مباشرة دون الأخذ بعين الاعتبار رأى الشعب الممثل فى مؤسساته الدستورية على ضعفها، ومصالح الشعوب على وضوحها. كما ظن الغرب أن السلطات المطلقة للحاكم تجعله قادراً على أن يأخذ القرارات المصيرية فى الداخل والخارج. فهو صاحب القرار الأوحد. تكفى موافقته على رغبات القوى الكبرى حتى تتحول موافقته إلى قانون، ورغبات القوى الكبرى إلى أحلاف وتدخلات عسكرية ومساعدات الأخ على ضرب أخيه.

هذا هو الوضع الحالى فى العراق، وفلسطين، وأفغانستان، والشيشان. ظنت قوات الغزو الأمريكى البريطانى أن القضاء على حاكم العراق حتى ولو سلمنا بالأعذار، التسلط والقهر فى الداخل، وأسلحة الدمار الشامل لتهديد الخارج، هو قضاء على شعب العراق. واغترت بسرعة تسليم بغداد، واعتبرته نصراً مؤزراً وفتحاً مبيناً. وهو فى الحقيقة تحول الجيش إلى الشعب بأسلحته، ومن الزى العسكرى إلى الزى المدنى. وبدأت مقاومة الشعب العراقى بكل طوائفه واتجاهاته السياسية الوطنية والقومية والإسلامية. تقاوم على أرضيتها أقوى جيوش العالم. قد تهزم قوات الغزو الأمريكى البريطانى الجيش النظامى العراقى بطبيعة الحال نظراً لعدم التكافؤ فى العدة والعتاد، ولكنها تعجز عن غزو شعب بأكمله بما لديه من قدرة على الاستشهاد، دفاعاً عن الكرامة، وعزة النفس، واستقلال الأوطان.

وحدث الشيء نفسه فى فلسطين. إذ يرفض الكيان الصهيونى الحديث مع عرفات،

(*) جريدة الاتحاد: أكتوبر ٢٠٠٤.

ويرفض الدخول فى أى مفاوضات بدعوى أنه لا يمثل الشعب الفلسطينى. وفى الوقت نفسه يحاصره ويمنعه من التنقل ومغادرة رام الله ظانّا أنه يقيد حركة الشعب. والشعب يقاوم فى الضفة والقطاع، فى المخيمات وعبر الأنفاق. فحصار الرمز بل والتهديد بقتله لا يقضى على حياة شعب.

وتكرر المشهد نفسه فى أفغانستان بغزوه لتخليص الشعب من حكم الطالبان وتنصيب حكومة موالية بدعوى التخلف والأصولية والعنف وحقوق المرأة والطفل. ويحقق الغزو ما أراد بقلب السلطة الحاكمة ولكن تبدأ مقاومة الشعب الذى يرفض احتلال الأوطان. ويسيطر على مساحات شاسعة خارج المدن. فلا يمكن للمحتل الأجنبى أن يقوم بدور الحاكم الوطنى مهما يبلغ تسلطه وتفرده وتخلفه.

ورؤية الغرب لنا أحيانًا تقوم على وهم مما تعود عليه أو خداع قياسًا على حالة خاصة. فليس حضور الشعب دائمًا فى صيغة مؤسسات دستورية، وصحافة حرة، وتعددية حزبية، ووزارة مسئولة أمام البرلمان، وهى الصورة الرائجة من النموذج الغربى. قد يحضر الشعب بالنكتة على الحكام، والسخرية من الأوضاع. وقد يحضر بإدارته الظهر للحاكم، وعدم التعرض له حتى بالنكتة لأنه لا يثير السخرية. وإذا كان شر البلية ما يضحك، فإن شر البلية ما يحايد، ولا ينفعل بالحاكم إيجابًا أو سلبًا لأنه لا يستحق العناء، ولا يثير الخيال. وقد يحضر الشعب بالنزول تحت الأرض فى خلايا سرية استعدادًا للانقلاب على السلطة. وماذا ينفع القول دون العمل؟ وقد يحضر الشعب بالهجرة خارج البلاد إما سعيًا وراء الرزق، فكل بلاد الله أوطان، وأرض الله واسعة تقبل الهجرة، وإما تكوينًا لبؤر معارضة فى الخارج، صوتها أكبر من أثرها، وحضورها الإعلامى فى الخارج أكبر من وزنها الفعلى فى الداخل. لا يغيب الشعب بل ينزوى إلى حين.

ونسى الغرب أن نموذج العرب والمسلمين هو ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وهو النموذج الذى نجح إبان حركات التحرر الوطنى عندما توحدت حركات المقاومة الإسلامية والليبرالية والقومية والماركسية من أجل طرد المحتل. فالتناقض الرئيسى يجب التناقض الداخلى. وهو النموذج الذى عبّر عنه المثل الشعبى «أنا وأخويا على ابن عمى، وانا وابن عمى على الغريب».

ومهما بلغت التناقضات فى شعب العراق بين الطوائف والأعراق، فإنها تتفق جميعًا على مواجهة العدوان الخارجى، سنة وشيعة وأكرادا فى العراق، وفصائل المقاومة والسلطة الوطنية فى فلسطين، وحكومة ومعارضة فى السودان ومصر، ومسلمين ونصارى فى كل أرجاء الوطن العربى بل ويهودًا أيضًا. فقد جمع الكل العروبة. وساهموا فى نهضتها الثقافية والعلمية والفنية قبل أن تأتى الصهيونية الغربية إلى البلاد وتفصلهم عن الوطن الأم فى «جيتو» صهيونى فى فلسطين.

فعلى قوات الغزو الأمريكى البريطانى أن تفكر أكثر من مرة قبل أن تكرر النموذج العراقى أو نموذجًا آخر فى سوريا أو السودان أو إيران. فمهما بلغ الحاكم من سطوة إلا أنه فى حالة العدوان الخارجى يستيقظ الشعب ويقف فى مواجهة العدوان الخارجى. فالشعوب لم تمت ولكنها تتوارى وتنزوى كالأسد الرابض، هدوء يسبق العاصفة. وإذا عاد الاستعمار الأوروبى الأمريكى بطريقة القرن التاسع عشر تعود من جديد حركات التحرر الوطنى التى سادت القرن العشرين، وقضت فى عقدين من الزمان على استعمار دام عدة قرون. وهو المتوقع فى المنظور القريب بعد العدوان على العراق وفلسطين وأفغانستان والشيشان وكشمير واندلاع المقاومة الوطنية.

ويرى الشعب فى الحالتين، استبدال سيد بسيد، السيد الأجنبى بالسيد الوطنى. إذ تقوم قوات الغزو الأمريكى البريطانى بنفس أساليب القتل والقذف بالطائرات وبالمدافع على المدنيين الأبرياء. ولم يتغير الحكم التسلطى قبل الغزو وبعده وربما أسوأ. فقد كان المواطن العراقى يشعر بالأمن الاجتماعى وإن لم يشعر بالأمن السياسى. وكان لا يجوع ولا يعرى ولا يعطل عن عمل ولا يهدم عليه منزل.

ويبدو أنها نفس الأسطورة الصهيونية القديمة والأمريكية الجديدة، فى فلسطين والعراق، أرض بلا شعب، وفى أمريكا شعب بلا إمبراطورية، وفى بريطانيا حنين إلى العصر الإمبراطورى وسيادة البحار.

تثبت المقاومة كل يوم فى العراق وفلسطين أن الملك قد يموت ويظل الشعب حيًا. قد يختفى رأس النظام ويقبض عليه أسيرًا، ولكن الشعب حر طليق، يقاوم ويستشهد. قد يحاصر رئيس السلطة الوطنية وتحدد إقامته ولكن فصائل المقاومة طليقة تطلق الصواريخ وتدمر المركبات.

قد تخطئ المقاومة هنا وهناك. وقد تغالى فى قتل العملاء وخطف المتعاونين مع قوات الاحتلال، وتنفيذ أحكام الإعدام أمام أجهزة الإعلام. والحرب لا عقل لها. كل فريق يستعمل ما أوتى من قوة بحساباته الخاصة. ومبادئ الإسلام تظل محفوظة طالما أن هناك مقاومة للاحتلال.

وكم من قوى كبرى زالت لأنها لم تقدِّر مقاومة الشعوب. تحررت فرنسا من الحكم النازى بفضل المقاومة الفرنسية، وتحررت أمريكا نفسها بفضل المقاومة الأمريكية ضد الاحتلال البريطانى. وزال الاحتلال الرومانى قديمًا لأنه لم يقدِّر قوة شعوب المستعمرات.

لقد تخلت أمريكا عن مبادئ مؤسسيها الأوائل فتخلت الشعوب عنها. وتحولت مبادئ الثورة الفرنسية التى جسدها إعلان الاستقلال والدستور إلى مسيحية صهيونية ويمين محافظ جديد، وإمبراطورية تسود العالم باسم العولمة. وإسرائيل هى المخلص، يسوع آخر الزمان.

انتهى عصر الفرد وبدأ عصر الشعوب. فالفرد فان: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. والشعب باق. «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت»

***

١٢- الأمـوات يحكمـون(*)

من الطبيعى أن يحكم الأحياء. فالحكم عقد بين الحاكم والمحكوم، اختيار المحكوم للحاكم وتحقيق الحاكم مصالح المحكوم. وهو عقد يقتضى حياة الاثنين. فلا يحكم حاكم ولا يختار محكوم من الأموات. فمن الذى يقدر المصالح العامة لو أن كليهما الحاكم والمحكوم من الأموات؟

قد يكون من المألوف أن يظل الحاكم فى الحكم أكثر من دورتين. فلا يوجد إلا هو بوصفه زعيمًا أوحد، وأخًا أكبر، وقائدًا مغوارا، وعربيًا أبيًا. والناس مازالت مولعة بالخلاص وبظهور المخلص، فى ثقافة شعبية تعظم شهامة ابن البلد وشجاعة الفتوة فى حارة الحرافيش. وقد يكون من الغريب أن تتم بيعة الحاكم أكثر من دورتين إلى مدى الحياة. فلم تنجب البلاد إلا هو. ولم تر الأوطان قائد مسيرة مظفرة مثله. وتعديل الدستور أمر سهل مادامت الأغلبية للحزب الحاكم. والكل مستفيد من الوضع القائم، السلطة والثروة فى اليد. والدعم الخارجى مضمون. بل إن التوريث يتبع التجديد تلقائيًا، توريث الحكم للابن، بعد تجديد الحكم للأب. فالتجديد مدى الحياة للأب يعنى إلى أبد الآبدين، ليس فقط حتى نهاية العمر بل أيضًا حتى نهاية الزمان.

هكذا عاشت الأسر الحاكمة، عائلات الملوك أو القبائل أو العشائر أو الدول، أمويين وعباسيين وغيرهم، بصرف النظر عن شخص الحاكم الأموى والعباسى. وقد توالت على مصر القديمة حكم الأسرات. ويحكم العرب المحدثون باسم الأسر والقبائل. ولا فرق فى ذلك بين ملكيات أو جمهوريات، بين ملوك وعساكر، بين أمراء وضباط، بين سلاطين وجنرالات. بل إن دولا بأكملها تسمى بأسماء قبائلها أو طوائفها أو دياناتها. فالشرعية الدينية فى الغالب هى أساس الشرعية السياسية كما كان

(*) جريدة الزمان: ١٨ أكتوبر ٢٠٠٤.

الحال فى العصر الوسيط فى الغرب، الإمبراطور البابا، والبابا الإمبراطور، الكنيسة والدولة سلطة واحدة، وملكوت السماوات وملكوت الأرض فى يد ممثل السماء على الأرض.

وهكذا يحكم الأموات الأحياء. فالزعيم الراحل مازالت صوره تتصدر القاعات الكبرى وحوائط المبانى الفارهة. مازال يطل على الناس من عليائه، وربما هو فى النار. والابن قابع تحته. يستمد سلطته من سلطانه. صورته أصغر، وقامته أقصر. مازالت أقوال الأب الزعيم هى الأقوال الموروثة والملزمة والموجهة أكثر من الدساتير والقوانين. مازال فى الذاكرة التى تحل محل الذهن. يسمع ويرى كل شيء. مخيف فى حياته، ومرعب فى مماته. ولا يزال القهر مستمرًا.

وتساعد الثقافة الشعبية على ذلك. فالآخرة مازالت تحكم فى الدنيا. والموت حياة أبدية. ويدل على ذلك أهرامات الفراعنة لتخليد الراحلين. يأكلون ويشربون ويلبسون. ويخلدون آثارهم بالنقوش على جدران المقابر والمعابد. ولا ضير أن يسرق اللصوص حليهم، ويتاجرون فى آثارهم.

ليس المستقبل هو الغد للتخطيط له والسيطرة على كوارثه بل هو المستقبل المطلق الذى لا يأتى إلا بعد الموت. فالحياة الفانية فى الدنيا معبر وممر إلى الحياة الأبدية فى الآخرة. المستقبل القريب الذى لا نعرفه، ويحدده الغير لنا ويقرر مصيرنا فيه هو المستقبل البعيد الذى لا يأتى إلا فى نهاية الزمان.

الثقافة الشعبية مولعة بالنموذج والقدوة من خارج التاريخ لإثارة الخيال، وحشد العزيمة، وتقوية الروح فى لحظات الضعف والهزيمة. وما أكثرها فى حياتنا المعاصرة. وسير الأبطال تروى فى المنتديات الشعبية وعلى المقاهى. وكل سامع هو أبو زيد الهلالى. وعن حق تشتد السلفية وتنتشر؛ لأن أصولها فى الماضى الذى نحنُ إليه تعويضًا عن الحاضر وتوقفنا فيه.

مازالت آثار القدماء محفورة فى الأذهان. ومن سن سنة حسنة فله عشر أمثالها. ومن سن سنة سيئة فجزاؤه أعظم وأشد مما اقترفت يداه.

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

الزمن حاضر، المستقبل البعيد أو الماضى البعيد. أما الحاضر القريب فهو محاصر

بين الاثنين. ومن ثم نعيش خارج الزمان. يحكمنا الموتى من القبور أو المبعوثون من القبور. ويستمد الأحياء سلطانهم من الأموات. وقد كانت عبادة الأسلاف من مظاهر التدين عند بعض الشعوب. ويتوقف الزمن بتوقف الحاضر. فلا يصبح الحاضر ماضيًا ولا يتحول إلى مستقبل. البدن فى الحاضر والروح فى الماضى أو المستقبل.

ويبدو ذلك واضحًا فى الخطاب الدينى إذ يستثار الخيال بسيرة الأوائل العطرة. فننقل حاضرنا إلى ماضينا. كما يستثار الخيال بنعيم المستقبل الذى ينتظر الأخيار وعباد الله الصالحين. ولا فرق بين الخطاب الدينى والخطاب السياسى. فالأمة سياسيًا كانت منتصرة سلفًا لولا غوائل الزمن ومصائب الدهر. وتنتصر فى المستقبل وتخرج من عنق الزجاجة. و«الصبر مفتاح الفرج».

وفى الثقافة الشعبية أيضًا ما يدعو إلى الثورة على حكم الأموات والتمرد على استمرار القهر من وراء السماء بعد أن اختفى القاهر من الدنيا بالموت. فالكل ميت ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. ولا أحد يبقى فى هذا العالم إلى الأبد ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. ولا حكم يدوم. ولا سلطان يبقى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وإذا كان الأنبياء يموتون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، فلماذا يبقى الحكام خالدين فى الدنيا أبدًا يحكمون الأرض وهم فى السماء كما كانوا يحكمون وهم فى الأرض؟ وما الضامن أنهم فى السماء قادرون على الحكم؟ وما الدليل على أنهم فى أعلى عليين وليسوا فى أسفل سافلين؟ وما البرهان على أن ابنه سيد شباب أهل الجنة أسوة بالحسين سيد شهداء أهل الجنة، وقد كان يتعلم من أبيه الطغيان فى دنياه؟ والبقاء للأمة إن اختفى قادتها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والإمام الغائب له نائبه الذى يحكم باسمه. ولا يعقد على إمام غائب. بل إن تطبيق الشريعة مرهون بحضور الإمام، ولى المسلمين. فلا حكم لغائب. وانتظار عودته قد تطول، ولكنه عائد ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا.

ولماذا يظل الناس فى رعب بعد أن تنفسوا الصعداء بنهاية عصر الزعيم؟ لقد كان

شعار الملكية فى الماضى : «مات الملك يحيا الملك» . وشعارنا اليوم : «يحيا الملك الأب» و«يحيا الملك الابن» مع أنه ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] وأيضًا ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] .

لن يتحرر المحكوم من سيطرة الحاكم إلا إذا اختفت مظاهر التخليد للحكام ابتداء من ألقاب التعظيم والإجلال والتى قد تصل إلى حافة التقديس ، أصحاب الجلالة ، والعظمة ، والسمو ، والسعادة ، والنيافة ، والمعالى والرؤساء . وكثير منها من صفات الله أو أسمائه . ووضع صورهم أمواتًا وأحياء يجعل الغائب حاضرًا ، والميت حيّا . والدعوة لهم فى خطب الجمعة كما كان الحال منذ الأمويين تدعيمًا للسلطة السياسية بالشرعية الدينية .

إن الحاكم الذى يعيش فى قلوب الناس لقضاء مصالحهم هو الأخلد . لذلك لا يحتاج صلاح الدين ولا الظاهر بيبرس ولا محمد على ولا عبد الناصر أن يحكموا التاريخ من فوق السماء ؛ لأن آثارهم مازالت على الأرض . تحن إليهم الشعوب كلما أعوزتهم الكرامة والاستقلال وعزة الأمة ، وكلما تذكرهم الفقراء من عامة الناس .

* * *

١٣- تداول السلطة والمنافسة غير المتكافئة (*)

أصبح تعبير «تداول السلطة» من التعبيرات المتداولة فى الآونة الأخيرة، تعبر عن أشواق الناس وطموحات المعارضة. فقد سئم الكل طول فترة حكم الفرد الذى لا مثيل له، ولا يوجد فى الملايين من الشعب بديل عنه. فإما هو وإما الخراب والضياع والانهيار. فهو أساس الدولة ودعامتها. وهو الحافظ على استقرارها من أجل جلب الاستثمار. وهو المعتدل الهادئ الذى يحرص على أمن البلاد ضد الغلاة والمتطرفين من اليمين أو اليسار، من الإسلاميين أو الشيوعيين. هو كبير العائلة، وشيخ البلد وعمدة القرية وكأننا مازلنا فى عصر البطاركة القدماء نعيش فى المجتمع البطريركى.

وهو أحد بنود مشروع «الشرق الأوسط الكبير»، وأحد مقومات الإصلاح. فلا ثقة للناس بالحكم طالما أنه باق إلى أبد الآبدين. ويظل الناس سلبيين، لامبالين، غير مشاركين فى أى انتخابات عامة للرئيس طالما أن النتيجة معروفة سلفًا، الأغلبية المطلقة للمرشح الوحيد والتى قد تصل إلى ٩٩,٩ ٪ وفى أحسن الأحوال ٩٥ ٪. والناس تشاهد حولها السباق بين مرشحين فى أمريكا، يتناصفان أصوات الناخبين بفارق قد يصل إلى أقل من ١ ٪. وفى الكيان الصهيونى يتم الشىء نفسه بين الحزبين الرئيسيين. والعالم كله يشهد على عدم جدية الانتخابات عندنا، وجديتها عند الآخرين. ولا يوجد مثقف واحد مشارك فى الانتخابات على مدى نصف قرن لأنه يعلم أن صوته لا قيمة له، وأن النتيجة معروفة سلفًا سواء صوّت بنعم أم بلا.

والناس تريد التغيير. ولا تطمح إلا إلى تغيير الوزارة. وتتغير الوزارة ولا تتغير السياسات بل تسوء الأحوال أكثر فأكثر. وجوه جديدة عليها نفس الأقنعة القديمة. والوزارة لا تضع سياسات بل تنفذ سياسات لا تدرى من وضعها. وتدور الأمور من

(*) جريدة الاتحاد: ٦ نوفمبر ٢٠٠٤.

أسوأ إلى أسوأ. ورمزها انخفاض الجمارك على استيراد العربات للطبقة المتوسطة، ورفع أسعار السولار والمواد الغذائية للطبقات الشعبية. فالعولمة قادمة. والسوق مستعد، والبضائع جاهزة، والزبائن على الأبواب.

يتوق الناس إلى أن يكونوا أحراراً فى الاختيار بين عدة بدائل، ليس فقط بين أشخاص بل بين سياسات، بين سياسة الأمر الواقع، وسياسة التغيير المنشود، بين الأقوال والأفعال، بين الخداع والصدق. ينقص حياتهم الرأى والرأى الآخر منذ المدرسة حتى الجامعة. إذ تقوم التربية على التقليد والتحصيل. مع أنه من تراثنا أيضًا «كلكم راد وكلكم مردود عليه». ورأيى صواب يحتمل الخطأ. ورأيك خطأ يحتمل الصواب. ولا يجبر أحد الناس برأى إلا فرعون عندما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. ورأى السادة هو الحق ورأى العبيد هو الباطل.

فإذا ما تقرر الإصلاح والأخذ بمبدإ تداول السلطة فإنه يتحول إلى شكل دون مضمون ذراً للرماد فى العيون. فيُسمح لعشرات المرشحين بالنزول أمام الرئيس. وتفرد لهم الإعلانات. وتخصص لهم أوقات فى أجهزة الإعلام. بل إن البعض منهم ربما رشح نفسه بأمر الرئيس حتى يبدو للعيان أن هناك أكثر من مرشح، وأن مجموع الوقت الإعلامى لهم فاق وقت الرئيس عشرات المرات. ومع ذلك يأخذ الرئيس ٩٥ ٪ من الأصوات. ويأخذ مجموع الخمسة عشر مرشحًا ٥ ٪. والاقتراع حر مباشر أمام القنوات الفضائية وربما لجان دولية وإشراف القضاء.

هذه هى المنافسة غير المتكافئة بين من يملك كل شىء، التاريخ والزمن والسلطة والدولة والأمن والقوانين الاستثنائية، ومن لا يملكون شيئًا إلا مجرد الإعلان والدعاية. فالرئيس فى الحكم منذ عقدين من الزمان. تعود الناس على رؤيته. وأمنوا له. ويطل عليهم كل يوم من خلال أجهزة الإعلام وفى المناسبات الدينية والأعياد الوطنية. تتصدر أخباره وحركاته وسكناته نشرات الأخبار. ويصاحبه الإعلام فى أسفاره لمقابلة رؤساء الدول. أصبح جزءاً من حياتهم اليومية من الصباح حتى المساء. صوره فى دور الحكومة وعلى ألواح الإعلانات. أما المنافسون الآخرون فلا يعرف الناس عنهم إلا الأسماء أو الصور الشمسية. وليس لديهم نفس الإمكانات الإعلامية التى للرئيس.

وهم يمثلون أشخاصهم وليست سياسات بديلة. لا يعرف الناس أهدافهم. ولم يسمعوا عنهم من قبل. يسمعون مجرد كلمات عامة غامضة لا تؤيد مرشحًا، ولا تُبعد الناس عنه. معارض عينته الدولة معارضًا. ومرشح اختاره الرئيس مرشحًا. انتخابات بين أكثر من مرشح فى الظاهر ولا يوجد تكافؤ فى الفرص بين الرئيس والمرشحين الآخرين. خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف.

والناس على ما تعودت عليه وما سمعت به طبقًا للمثل العامى: «الشيطان اللى تعرفه أحسن من الشيطان اللى ما تعرفوش». وفى أى مباراة رياضية إن لم يتكافأ الخصمان فى الوزن والسن والتدريب فإن المباراة تكون باطلة. فالقسمة بين الرئيس ومعارضيه بتعبير القرآن ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ [النجم: ٢٢].

ولن يجرؤ أحد من الجادين الذين عملوا مع الرئيس ويقدر الناس مواقفهم الوطنية وحرصهم على استقلال البلاد على أن يرشح نفسه أمام رئيسه الذى عمل معه من قبل ومازال. فذلك خروج على قواعد الأدب واللياقة، وجحد بالنعم. وكثيرًا ما تعاطف الناس مع بعضهم الذين مازالوا فى الحكم أو الذين تركوه لخلافهم مع الرئيس وسياساته، دفاعًا عن استقلال البلاد ومصالح الناس، وضربًا للفساد والقضاء على أوكار المخدرات، وتنظيم المرور، ورفض ضغوط المؤسسات المالية الدولية لرفع الدعم للفقراء، وعدم بيع القطاع العام. ومع ذلك لا يجرؤ هؤلاء على نقد سياسات الدولة وقد كانوا يومًا جزءًا منها، ولا السياسات القائمة وقد كانوا من منفذيها.

يبدو أن تداول السلطة، والانتخاب بين أكثر من مرشح فى حاجة إلى جيل جديد، ومرحلة تاريخية جديدة حتى يتعود الناس على الترشيح والانتخاب. فلا يتحول حكم الفرد الواحد على مدى نصف قرن إلى حكم تعددى بمجرد قرار. السياسة فن الممارسة. والعادة تجب المبدأ. والأمر الواقع أقوى من المأمول.

ومع ذلك، يهم كسر الحاجز النفسى وبداية صورة جديدة للاختيار وممارسة الحق الطبيعى حتى تتجه الكفتان غير المتعادلتين بين المرشح الأوحد ومنافسيه القادمين نحو مزيد من المساواة. فتتكاثر صور المرشحين، وتتعدد الأصوات، وتتنوع السياسات، ويتبلور الوعى السياسى، ويقوى الإشراف القضائى، ويزداد الحرج أمام العالم الخارجى والنشرات الإخبارية الخارجية على القنوات الفضائية.

والمهم هو عدم الانشغال بالصورة دون المضمون، وبآليات السلطة عن البرامج والسياسات. فحرية الانتخابات وسيلة لا غاية. ويقلل من هذا الخوف الحوار الوطنى بين كل اتجاهات المعارضة التى تتحكم فى الشارع السياسى وليس فقط أحزاب المعارضة الشرعية، دون استبعاد أحد أو إقصاء فريق، من أجل تأسيس جبهة وطنية، وبرنامج عمل وطنى يمثل سياسات بديلة عن الوضع القائم. ويجد فيه الناس المخرج من الأزمة الراهنة.

يمكن للرئيس أن يبقى حكمًا بين السلطات، وفوقها جميعًا، لا يملك ولا يحكم. يكفيه الرمز التاريخى. ثم يتنافس المرشحون على قدم المساواة فى معركة لم تحسم من قبل. الرئيس فوق الأحزاب جميعًا. يمثل الوحدة الوطنية للأمة مثل المرشد الروحى للثورة الإسلامية فى إيران. لا تكون المنافسة بين مرشحين منافسة عادلة إلا إذا توازى حضورهما فى المجتمع، وتبلورت سياساتهما كاختيارين مستقلين. أما تعدد المرشحين أمام الرئيس الأوحد فهى صورة بلا مضمون، شكل بلا جوهر، يلحق بنفس الصيغة الأولى، المرشح الأوحد. والصراحة خير من النفاق.

***

١٤- وداعـــا... أبا عمـــار(*)

عرفته عام ١٩٥٢م عام الثورة المصرية فى الجامعة عندما أتى ليدربنا فى المدينة الجامعية لطلاب جامعة القاهرة بعد أن قررت الثورة فرض التدريب العسكرى على الطلاب فى الصيف استعدادًا لمعركة طرد القوات الإنجليزية من قناة السويس وقاعدتها فى التل الكبير، استئنافًا لمعركة القناة التى قادتها الحركة الوطنية المصرية فى قناة السويس فى ١٩٥١م قبل الثورة والتى كان عصبها الإخوان المسلمون والضباط الأحرار والتى أجهضت بحريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ والذى أسرع باندلاع الثورة فى يوليو من العام نفسه. ورأيته آخر مرة فى يونيو ١٩٩٠ فى منزله فى بغداد على العشاء مع لطفى الخولى ويوسف شاهين فى أثناء مؤتمر مساندة العراق ضد تهديد بوش الأب بغزوه والذى تلته السنوية الأولى لميشيل عفلق.

قد يأتى هذا الوداع متأخرًا ولكنه مازال فى وقت الحداد. والذكريات تتجاوز الأوقات كما يتجاوز الخلود الزمان. كان بين الحياة والموت على مدى نصف قرن فى الأردن والكرامة وبيروت والصحراء الليبية وتونس ورام الله. يأتى أبو عمار ويذهب ويظل علامة ورمزًا وصورة فى التاريخ. فقد توحد مع القضية الفلسطينية. وأصبحت الكوفية الفلسطينية على الرأس والمسدس على الجنب رمزين لهما. لا يُذكر أبو عمار إلا وتذكر فلسطين. ولا تذكر فلسطين إلا ويُذكر أبو عمار. فهو الزعيم الأوحد بالرغم من زعماء الفصائل فى حماس والجهاد وفتح، والجبهتين الشعبية والديموقراطية. ولم يكن يوازيه إلا الشيخ ياسين مؤسس حركة حماس ومروان البرغوثى قائد سرايا فتح وباقى قيادات الفصائل. كان آخر المناضلين العظام فى الخمسينيات والستينيات من قادة حركات التحرر الوطنى مثل شوإين لاى، وهوشى منّه، وسوكارنو، ونهرو، وتيتو،

(*) جريدة الاتحاد: ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٤.

وعبد الناصر، ونكروما، وسيكوتورى، وجومو كنياتا من الراحلين، ونيلسون مانديلا وأمبيكى وكاسترو من الأحياء.

لقد حافظ على وحدة الشعب الفلسطينى بكل تياراته ومنظماته وفصائله. واستطاع رفع التناقض بينها. ولم يقع الاقتتال بين المناهج والرؤى والمداخل المختلفة للقضية. وهى طبيعية فى مراحل النضال الوطنى للشعوب. جمع بين المثالية والواقعية. المثالية بالتمسك بالحقوق الطبيعية للشعب الفلسطينى المعروفة، الانسحاب من الأراضى المحتلة فى عدوان يونيو- حزيران عام ١٩٦٧م، وإنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس. بل إنه ضحى بورقة كلينتون فى كامب ديفيد الثانية لأنها لم تكن واضحة بالنسبة للقدس، وهو ما حاولته مفاوضات طابا، ولا فى حق العودة كما هو الحال فى وثيقة جنيف. والواقعية فى تغيير الميثاق الوطنى الفلسطينى الذى كان ينص على إنشاء دولة ديموقراطية تعددية واحدة يتعايش فيها الجميع بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية. وهو النموذج الأندلسى القديم، والاعتراف المتبادل بحق الشعبين الفلسطينى والإسرائيلى فى العيش فى دولتين مستقلتين فى أمن وسلام. وحصل فى المقابل، وبعد اتفاقيات مدريد وأوسلو وواشنطون والقاهرة وعمان على إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية لأول مرة على أرض فلسطين، وإعادة المنظمة من تونس إلى فلسطين. تستأنف النضال من قلب الوطن المحتل. وتحولت قضية فلسطين من قضية لاجئين إلى قضية شعب محتل يناضل من أجل الاستقلال. واستطاع أن يكسب تأييد العالم كله لقضية فلسطين حتى داخل الولايات المتحدة الأمريكية وبخاصة عند الديموقراطيين وداخل إسرائيل فى حركة السلام الآن، وكما عبرت عن ذلك وثيقة جنيف. وحازت قراراتها فى الأمم المتحدة لمناصرتها على شبه إجماع جميع الدول على حقوق شعب فلسطين باستثناء أمريكا وإسرائيل وجزيرتين أو ثلاث من جزر المحيط التى لا يبلغ تعداد سكانها حجم شعب فلسطين. جعلته إسرائيل وأمريكا عقبة فى سبيل السلام؛ لأنه لم يتنازل عن الحقوق الأساسية لشعب فلسطين. والآن وبعد رحيله تَعُدَّ أمريكا وإسرائيل المقاومة هى العقبة تهربًا من استحقاقات السلام.

وبطبيعة الحال تختلف معه الفصائل؛ لأنهم يمثلون الجانب المثالى فيه دون واقعيته. فمن يرفض تحرير الأرض بالسلام، وأن «ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة»؟ ومن لا

يتمنى تحرير فلسطين من البحر إلى النهر؟ الأمانى القومية قد لا يحققها جيل واحد، وبأسلوب واحد. فقد ظل الصليبيون فى إمارات الشام أكثر من مائتين وخمسين عاما، وانتهوا بالاندحار. وقد كان هو نفس مصير الاستعمار الغربى الحديث لمعظم الدول العربية والإسلامية. وقد تحررت جنوب أفريقيا بعد ثلاثة قرون من قدوم الرجل الأبيض إليها. وكذلك تحررت الهند بعد عدة قرون. وعام ١٩٤٨م هو عام النكبات بتقسيم الهند وفلسطين، وإقامة الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا، وتقسيم كشمير. والآن تحررت جنوب أفريقيا. ومازال الشعب الكشميرى والشعب الفلسطينى يناضلان. ومن الطبيعى أن يختلف معه «المعتدلون» أو الواقعيون أنصار التسوية طبقا لمبدإ «خذ وطالب»، نظرا لتغير ظروف العالم وظروف الوطن العربى. ومن يرفض السلام ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾؟ [البقرة: ٢١٦] وصلح الحديبية كان فى الظاهر تنازلاً وفى الحقيقة مكسبًا كبيرًا بعد أن قويت الشوكة حتى فتح مكة.

وأبو عمار فى النهاية حاكم عربى لوطن عربى فى أمة عربية وفى مرحلة تاريخية راهنة نعانى منها جميعًا. هو عرضة للنقد مثل غيره من حكام العرب. فقد طالت مدة الحكم دون تداول للسلطة كما فعل مانديلا ومحمد محاضر. وطغت شخصيته على كل القيادات الأخرى من الصفين الأول والثانى. وهو الوضع نفسه فى معظم أرجاء الوطن العربى. فلماذا نريد منه ما لا نريد من غيره؟ وقيل عن الفساد المالى والإدارى والتسلط فى الحكم والشللية والولاء للأشخاص وتقريب المقربين، وإبعاد المبعدين. ومن الطبيعى أن يحدث ذلك. فهو حاكم عربى. ومن من الحكام العرب لا تقال عنه الأقاويل نفسها؟ فلماذا نريد أن نجعله استثناء من القاعدة؟ وقع فى أخطاء سياسية مثل الصدام مع الأردن بعد أن تجاوزت أفعال المقاومة حدود الدولة المضيفة. وهو طبيعى نظرا لوحدة الشعبين والقضيتين. ومن الطبيعى أن يتحول جنوب لبنان المناضل إلى أراضى فتح. فلبنان أصغر بلد عربى من حيث الحجم إلا أنه أكبر قامة عربية من حيث النضال. ففى الجنوب نصف مليون فلسطينى فى المخيمات، ومنه انطلقت المقاومة. وفيه تم التحرير للجنوب بفضل حزب الله. والعظام هم الذين يقعون فى الأخطاء السياسية. تأييد غزو صدام للكويت خطأ سياسى، وتأييد العدوان الأمريكى على العراق بدعوى تحرير الكويت بل وإرسال قوات عربية للمشاركة فى قتل العربى لأخيه العربى أيضا خطأ سياسى. ومجموع الخطأين لا يكوّن صوابًا.

ومهما كان السبب فى مغادرته هذه الدنيا غيلة أم اغتيالا. فرب ضارة نافعة ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فالآن تتحرك القضية بعد طول انتظار بعد أن انشغل الجميع فى العدوان على العراق. وتم نزع حجة إسرائيل وأمريكا، أنه لا يوجد شريك فلسطينى لمفاوضات السلام. وربما تريد أمريكا وبريطانيا التكفير عن أخطائهما فى العراق وغسل دماء العراقيين بدماء الفلسطينيين والإقلال من العداء للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا إذا ما قامت الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس.

إن الزخم الفلسطينى الآن لقادر على وضع القضية إلى الأمام، غصن الزيتون أو البندقية. وكما استشهد الحاج أمين الحسينى فى النكبة الأولى فى ١٩٤٨، واستطاع الشقيرى تحويل القضية من الهزيمة إلى الرفض. فقد استطاع أبو عمار تحويل الرفض إلى ثورة. وقد يستطيع من يخلفه أن يحول الثورة إلى دولة. وإذا كانت انتفاضة الحجارة الأولى قد أتت بالسلطة الوطنية الفلسطينية، تستطيع انتفاضة السلاح الثانية تحقيق الدولة الوطنية المستقلة وعاصمتها القدس. وإذا أزمعت الإدارة الأمريكية فى مدتها الثانية أن تغسل عار العراق بحق فلسطين فلم لا؟ «أفلح إن صدق».

* * *